رواية

هاني عبد المريد

محاولة الإيقاع بشبح

الدار المصرية اللبنانية

رواية

هاني عبد المريد

محاولة الإيقاع بشبح

الدار المصرية اللبنانية

محاولة الإيقاع بشبح

رواية

عبدالمريد، هاني

محاولة الإيقاع بشبح: رواية /هاني عبدالمريد. - ط 1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

152 ص؛ 20 سم .

تدمك : 978 - 977 - 795 - 196 - 8

1- القصص العربية

أ-العنوان 813

رقم الإيداع : 2018/ 16819

©

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2018م

الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار .

1

«شبح ».

هكذا نطق الخال بلا داعٍ، وبمفاجأة كعادته .

كنت أذاكر مورفولوجي حين دخل لحجرتي، جلس بجواري على السرير، فرد جسده متأوهًا كأنه وصل لملاذ آمن، ثم توجه إليَّ فجأة ملقيًا بالكلمة في وجهي، رافعًا رأسه بكبريائه المعهودة حين يسوق لي تحديًا، كنت مشغولًا بامتحانات الجامعة، وكان يهاجمني، بلا داع، تفكيرٌ خاصٌ بأهمية الخال في حياتي، ماذا أمثل له، وماذا يعني هو لي .

حين نطق بدا كأنه حرك المياه الراكدة بيننا، بطريقته صنع صخبًا دبت معه الروح بين جنبات المكان، جعلني أفكر هل نحن نقترب من الناس أكثر حين يكون بيننا وبينهم لعب، أم حكايات. بيني وبين الخال حكايات، أنبتت أسرارًا ولعبًا، الحكايات تشمل كل شيء، أتخيل أنه لا لعب بلا حكايات تسبقه، لكني على أي حال لا أستطيع رد دعوته، لا أستطيع الهروب من تحدٍ؛ تركت المورفولوجي، كان عليّ أن آتي بحكاية لها علاقة بكلمة شبح، كما تحتم شروط اللعبة، أدرت جسدي تجاهه، في البدء لم أكن أعرف ماذا سأقول، ولكن سريعًا أدركت ما أود قوله، هي فقط الطريقة، كيف سأعبر عما بداخلي

بأقل مجهود، من أين سأبدأ، سندت ظهري إلى الجدار، وراحت عيناي بعيدًا، محاولًا جمع شتات الصور.. وبدأت القول .

*

في ذلك اليوم، كنا قد أدركنا بعد محاولات عدة، أن أبي وأخي الأكبر قد تحولا بالفعل لدميتين من المطاط، مجرد دميتين لا نفع منهما، ولا شيء استطعنا تقديمه لهما ليعودا لطبيعتهما البشرية كما كانا، حينها تركناهما ملتصقين بالبيت، صحونا مبكرًا، ارتديت ملابسي معتمدًا على نفسي، كما تعلمت مؤخرًا، ارتدت أختي الصغيرة «فريدة» ملابسها أيضًا بنفسها، بينما وقفتْ أمي تعلمها كيف تصفف شعرها سريعًا دون مساعدة من أحد، ونحن نتبادل التثاؤب كقطط صغيرة، ربما بسبب القلق وعدم النوم طوال الليل استعدادًا للسفر، الذي بدا لي كمغامرة .

خرجنا حينها في زيارة أولى للخال، قيل لنا إنه يبعد كثيرًا عن بيتنا، وإنه يسكن هناك، في بلاد أخرى، أكثر ازدحامًا وتوحشًا، تزودت أمي بالسندويتشات، وزجاجة المياه المثلجة؛ استعدادًا للرحلة .

كانت تحدثنا طوال الطريق، تصف كل ما تراه عيوننا، تفسر كل ما تفعله، من هنا سنركب أتوبيس السوبر جيت، وصفت لنا موقف الأتوبيسات قبل الوصول إليه،

وصفت ماذا سنركب بعد ذلك حتى نصل إلى بيت الخال في «بين السرايات»: اسم المحطة، كشك السجائر، ثم محل عصير القصب ذا الواجهة المكسوة بالسيراميك، بعده ننعطف يمينًا، لنجد مباشرة تجاه اليمين شجرة كافور كبيرة جافة، من أمامها على الجانب الآخر باب يبدو كقبو صغير، سندخل ونفاجأ بالدرج المتهالك، ذي الدرابزين الخشبي العتيق، المليء بالأتربة والتشققات وخيوط العنكبوت، مما يجعله غير صالح للاعتماد عليه، سيهتز الدرج من تحت أقدامنا مع كل خطوة، وكأننا نخوض في رمال متحركة، أكاد أفرد ذراعي في الهواء حين الصعود مقاومًا السقوط، وكأنني لاعب سيرك يتوازن فوق حبل ممدود في الهواء، ستشجعنا أمي حتى لا نخاف، ستقول إنه منذ عشرات السنين، وهو يصدر نفس الصرير، وإنه يحب أن يبدو للأرجل التي تطأه لأول مرة كأنه سينهار، بعد ذلك سيعتادك، وتمر من عليه بلا خوف وفي أمان تام .

سنصعد طابقًا، وقبل الوصول للثاني تظهر السماء من فوقنا واضحة مضيئة، معلنة أن البيت مكون من طابقين فقط، نقف لندق بابًا ظل موصدًا، حتى استسلمنا لحقيقة أن الخال يونس ليس بالداخل، جلسنا حائرين أمام بابه، نلتقط أنفاسنا من إرهاق الطريق، غير عابئين بالأتربة التي تكسو المكان، سندت أمي رأسها إلى الحائط، ظلت تخلل أصابعها في شعر فريدة التي تلقي برأسها في استسلام تام على فخذها، حتى راحا

في نوم عميق، بينما كنت أجلس على درجة سلم أعلى، أقضم سندوتش جبنة مالحة، وبجانبي زجاجة ماء فارغة، شعرت كأنني في نوبة حراسة، تمثلت دور أبي، شعرت بصعوبة أن تكون مسئولًا عن نائمين من الممكن أن يصيبهما مكروه لو غفلت للحظة، مر الوقت ثقيلًا حتى جاءني صوت غليظ معترضًا، من عند مدخل البيت :

«شيل إيدك، دا أنا أوصلك لآخر الدنيا.. وصلوك لقبرك يا بعيد ».

أيقظتُ أمي، أكدتُ أنه صوت الخال.. وقفنا استعدادًا لاستقباله، نفضنا التراب والغبار عن ملابسنا، مرت فترة من الصمت، لم نكن نستمع فيها إلا لصوت صرير الدرج من تحت قدميه البطيئتين، ثم بدا فجأة وكأنه تذكر ما حدث :

«وهو أنا كنت طلبت مساعدتك يا بارد، يا ابن بنت المرة.. ناس ماعندهاش دم ».

حينها كانت عيناه ما زالتا تبصران بصيصًا من النور، فيبدو له الناس كأشكال شبحية غير واضحة المعالم .

لم أكن أعلم أن هذا الخال شبه الضرير، الذي بهرني بلسانه السليط، سيكون من قدري، وأن قدري أن أقترب أكثر، وتقترن حياتي بحياته، ووجودي بوجوده،

فتصبحان حياة واحدة، ووجودًا واحدًا، لم أكن أعرف أن هذا البيت الذي بدا ككائن أسطوري عجوز، سيكون البيت الذي يؤويني، وأن جدرانه المتهالكة ستقيني الهلاك في يوم ما .

عندما وصل إلى باب شقته، كان يضع يده فى جيب بنطلونه، باحثًا عن مفاتيحه، عندئذ لمحنا كثلاثة أشباح مختلفة الحجم، ظل يردد بهلع واضح :

«ايه ده.. بسم الله الرحمن الرحيم ».

بادرته أمي :

«متخافش يا يونس.. أنا أختك هانم ».

«هانم! الله يحرقك، ما تتكلمي داهية تاخدك انتِ كمان ».

مد يده لها مصافحًا، شدها نحوه وبقيت في حضنه قليلًا، تجاهلني وأختي تمامًا، ظل يفتش في جيوبه عن المفتاح، ثم ظل لما يقرب من عشر دقائق معتمدًا على نفسه، رافضًا أي عرض لمساعدته، حتى استطاع إدخال المفتاح في القفل المدلى بأعلى الباب، ثم إغلاقه بمكانه على فردة واحدة بالرزة، والتوجه للشباك بالحائط المقابل، ليمرر الضوء والهواء من خلاله، وأخيرًا يتذكرنا :

«ما تدخلوا، إيه مستنيين عزومة ولا إيه؟ ».

2

عدنا لبيتنا بعد زيارة أخي يونس، لم أتخيل في يوم أنني سألجأ إليه، وأحتاجه لهذه الدرجة، كنت أظن دومًا أنه الأكثر احتياجًا لي ولسؤالي عنه .

أول ما فعل «يامن» أن دخل لحجرته الكبيرة المرتبة، اطمأن على صندوق اللعب، وقف فى شرفته الفسيحة، سقى زرعه المنتشر في أركانها، نظر للبراح من أمامه، وللمساحات الخضراء الشاسعة، بدا لي كمن استيقظ من كابوس ويود التأكد من عودته لعالمه الحقيقي، كنت أرى تعاطفه مع خاله شبه الضرير، الذي يعيش حيث الزحام وعوادم السيارات والضوضاء، يسكن بيتًا - بكل المقاييس-غير صالح للاستخدام الآدمي، بدا لي أيضًا وجود يونس في ذلك البيت، وكأنه ضيف ثقيل، يزاحم الفئران والعناكب في أماكنها، كأنه دخيل على الصراصير، ويتقاسم الحياة مع العقارب التي تسكن بعض الشقوق بالجدران الرطبة .

عندما رأى يامن العقرب يخرج من تحت باب الحمام، اقترب منه، تأمله، اعتقد حينها أنه أحد أنواع العناكب، وقبل أن يحاول لمسه، تراجعت يده بعناية السماء، مفضلاً أن أراه أولاً، ساعتها جحظت عيناي، صممت أن نعود لبيتنا في نفس اليوم، فريدة كانت نائمة طوال طريق العودة، وعندما وصلنا إلى البيت، أكملت نومها

لليوم التالي، كأنها لم تنم طوال الأيام التي غادرت فيها حجرتها .

أما أنا فلم أهتم حينها سوى بمرزوق ومازن .

فتحتُ باب الشقة، ألقيتُ بالحقائب الثقيلة، جريتُ أولًا إلى حجرة مازن، الذي كان ثابتًا بسريره في الوضع راقدًا، وهو يضع بكل ثقة ساقًا فوق أخرى كما تركته، بينما كان مرزوق في حجرتي، واقفًا أمام الدولاب كما هو في وضعه الثابت .

ظللت أتحسسهما، وعيناي تذرفان الدمع، وكأنني أراهما على حالتهما هذه لأول مرة .

بجوار مرزوق، حكيت كل ما حدث في رحلتنا إلى يونس، طريقة استقباله لنا، أرغفة الحواوشي التي اشتراها ليلاً احتفاءً بنا، والتي تسببت لنا في إسهال وقيء شديدين، عصير القصب الذي يأتيه في أكياس توضع في سلته المدلاة، لمجرد ندائه على صبي المحل، كما حدث مع الحواوشي، حكيت عن سلة يونس، التي تغنيه عن النزول للشارع، عن الأتوبيس المكيف شديد البرودة، وفيلم أكشن بائس قام السائق بعرضه تزجية للوقت، عن شحاذين يملؤون الشوارع طوال الوقت، محاولين استدرار تعاطفك بكل الطرق .

ما حكيته لمرزوق كررته لمازن، بنفس التفاصيل، وربما بنفس الترتيب، حكيت وأنا راقدة إلى جواره، حتى تذكرت فجأة؛ فقمت سريعًا، لعمل الطقس الذي نسيته وسط زحمة الحكايات، أتيت بكوب الماء، وقطعة من القطن الطبي، مسحت بها، مبللة شفاههما واحدًا تلو الآخر .

كنت أعرف أن فعلي هذا ليس منه فائدة، لكنني فقط وددت لو أحس بأنهما ما زالا حيَّين، قلبي يخبرني بذلك، أنهما حيَّان وأن جسديهما اللذين يبدوان كدميتين من المطاط، لا بد سيتحركان ويحكيان ويضحكان، وسيكون بالتأكيد كل ما حدث لهما مجرد ذكرى لا يحملان تجاهها أي مشاعر، أو مجرد حادث عابر، أنا أشاهد التلفزيون وأقرأ الجرائد أحيانًا، سمعت عن قرية يغفو فيها الناس لأيام متواصلة، وعن أخرى لا تلد نساؤها إلا توائم، قرى تأكل لحوم البشر، وقرى أبيدت لسبب أو لآخر .

سمعت عن أناس يذهبون إلى الموت ويعودون، ليجلسوا بين ذويهم في أمان تام يحكون عما رأوا من جبال جليد، أو ملائكة بيضاء، عن ضوء قادم من بعيد حيث نهاية النفق .

أثق في أنهما سيعودان لطبيعتهما، وسنجلس معهما، نستمع كيف كانت تجربة التحول لدمى، وربما نسخر حينها من مشاعر القلق التي تنتابني الآن بلا داعٍ .

3

لم يمر الكثير على زيارة الخال، ربما ما يقرب من ثلاثة أشهر، لكننا عدنا ومعنا رقم هاتفه المحمول، وكانت أمي بشكل شبه يومي، تكلمه وتجعلني وفريدة نطمئن عليه، نسأل عن صحته، الخال لم يكن يمرر المكالمة دون دعابة أو أحجية، يتركها معنا، ويطالبنا بالحل في المكالمة التالية، مما خلق بيننا وبينه بعض الألفة .

اتصلنا به كما يحدث يوميًا، ذكرني بأول مرة قال لي المثل الشعبي «الخال والد»، وكان بالطبع المقصود أن منزلة الخال في منزلة الأب، لكنني تخيلت حينها المثل يتحدث عن حكاية خال حمل ثم وضع طفلًا، في كل حين يحب الخال المرور على سذاجتي، حتى نتضاحك وينهي الحوار بجملته الشهيرة :

«صحيح، أما حتة كروديا !».

كنا في نهاية الأسبوع، حيث يوم الخميس ومماطلة فريدة في عمل الواجب المدرسي، محاولةً إرجاءه، كنت أكبرها فقط بثلاث سنوات، أنهيت واجباتي بحجرتي، وما زال يصلني صوت أمي وهي تنهرها وتأمرها بعمل واجباتها، صوتها وهي تحاول إقناعها بأن الصف الثاني الابتدائي سنة مهمة، ويمكن أن ترسب لو لم تذاكر بشكل أفضل، لم أكن أركز جيدًا مع كلامها المكرر،

ودفاعات فريدة المكررة أيضًا، في النهاية وصلتا لحل وسط مكرر كذلك، أن يظل عرض المسلسل التلفزيوني، وتظل فريدة أمامه تشاهده، وفي نفس الوقت تعمل واجباتها المدرسية، التي لم تكن أكثر من تكرارها لنسخ بعض الصفحات من كتاب القراءة، أمي في المطبخ تجهز الغداء، بقيتُ في الشرفة أولي زرعي بعضًا من الرعاية، بينما رقدت فريدة على بطنها، مرتكزة على مرفق يدها اليسرى، من أمامها الكتاب والكراس، الذي تنقش فيه بيمناها

بلا تركيز، بعد قليل جاءني صوت أمي تناديها مطالبة الخفض من صوت التليفزيون قليلًا، لكنها لم تستجب، قد تكون -كعادتها-تجاهلت صوت أمي مصطنعة عدم السمع، وقد تكون -كعادتها أيضًا-راحت في النوم العميق، وسقط القلم من يدها فوق كراسها، وقد يكون ...

صوت شهقة أمي، قطع كل ما سبق من توقعات، شهقتها التي حرصت -كما تفعل في كل مرة-على أن تكون مكتومة، دخلتُ سريعًا، وجدتُ فريدة راقدة على نفس الهيئة التي تركتها عليها، لكنها صارت في غمضة عين كدمية من المطاط، بعيون بلا حياة، وجسد مفرّغ، أمي بقيت بجانبها تنعي حظها، قالت إنها فقدت البنت التي تدخرها للأيام، تنتظر أن تساعدها عند هِرَمها، أن تحمم جسدها حين يمرض، تبكي عليها، وتقف على غُسْلها حين تموت، ها هي تتحول كما حدث مع أبيها، وكما

حدث مع أخيها، تثبت بمكانها، لتبقى أمي بجانبها طوال الليل تبكي بكاءً مكتومًا، حتى لا يعلم أحد من الجيران عن كارثتنا شيئًا .

طل الصباح على عيني هانم المنتفختين، ملتهبة الجفنين من كثرة البكاء وانعدام النوم. طل الصباح، على استحياء، على قلبها المكلوم المنكسر، وروحها التي تتوق إلى الخلاص .

مع تسرب أول شعاع لضوء الشمس، كنت وأمي نكرر نفس الرحلة لبيت الخال يونس، هذه المرة كنا وحدنا دون فريدة، التي ظلت بصالة شقتنا، ساكنة بمكانها مع من سكنوا، هذه المرة كانت أمي تحمل شنطة كبيرة، بها كل ملابسي وكتبي وأدواتي، لم تكن تشرح لي الطريق، ولم تتحدث عن أي مما نرى، كانت ساهمة، قليلة الكلام، قالت فقط إن الحياة تقربنا بإرادتها ممن تحب، وتبعدنا بإرادتها عمن تحب، الحياة تسيّر أمورنا كما يرتأي لها، ونحن لا نملك سوى الخضوع، قالت إنها ستقوم بعمل إجراءات تحويلي لمدرسة قريبة من بيت الخال، وإنني سأبقى معه إلى حين، قالت إنها يومًا ما ستأتي لتزف إليّ الخبر الفرح، بأن أبي وإخوتي قد عادوا لطبيعتهم، وسأعود يومًا ما لبيتنا، أكدت أنني لا بد سأعود.
أودعتني لدى الخال كمن يحفظ شيئًا عزيزًا لديه في مخزن للأمانات، مخزن رطب مظلم، دون أي تفكير أو حساب للمشاعر، هو فقط التفكير في الحفظ والحماية،

رحلت حزينة وتركتني وسط أكثر المشاعر المتضاربة التي مررت بها في حياتي، أن تشعر بأنك قشة، مجرد قشة خفيفة تافهة تروح وتجيء مع الريح يمينًا ويسارًا، دون أي إرادة منها. ولم يبق لي في النهاية سوى الانصياع، والبقاء على أمل العودة في يوم ما، كما قالت لي وعيناها
لا تنظران إليّ .

4

أغلق باب يونس، شعرت كأنني تخليت عن جزء مني، شعرت برغبة في بكاء مر لطالما قاومته، كان الدرج يصدر صريره المعتاد، ويميد من تحت قدمي، شعرت أنني سأنهار وأسقط لا محالة .

جلستُ في مكاني، غير عابئة بتراب، أو حشرات، استجمعت نفسي، عينا يامن كانتا قاسيتين، بدتا متشبثتين بي، كأنه يتساءل مستنكرًا أين ستتركينني وحدي، وماذا أنت فاعلة مع أبي وإخوتي، وهم الآن مجرد دمى من المطاط المفرغ، لا تشعر ولا يمثل وجودك بجانبهم أي شيء، عيناه قالتا إنه يتألم، وإنه سيعاني كثيرًا من دوني .

لكن لا مفر، كان لا بد أن أتحرك، لا بد أن أبقى بجوار أبيه وإخوته إلى آخر لحظة، أواجه مصيري معهم، أحاول مساعدتهم .

كنت أعرف أن تمسكي بالأمل هو الرهان الوحيد، بل هو كل ما أملك .

في زيارتنا التمهيدية ليونس، كانت فريدة معنا قبل أن تتحول لدمية هي الأخرى، حينها لم أستطع أن أحكي شيئًا من الحقيقة، فقط قلت إن الأولاد جاءوا يتعرفون على خالهم، الذي حالت الظروف بيننا وبينه، حدثته عن

مفهوم الأسرة الواحدة، عن احتياج كل منا للآخر، كان يونس سعيدًا بما يسمع، سعيدًا بوجودي وبوجود الأولاد في بيته .

في ذلك اليوم كنت أفسر للأولاد كل كلمة، أحكي لهم كل ما نراه، أشرح الطريق بالتفصيل، كنت أضع احتمالًا أن يكون المتحول لدمية في المرة القادمة هو أنا، كان هذا يخيفني، ماذا سيفعل الصغيران حين يجدان نفسيهما وحيدين، بجوار بعض الدمى التي تنتشر في أرجاء البيت، وهما لا يعرفان عنوانًا لقريب، أو صديق، سيجدان نفسيهما وحيدين تمامًا في العالم؛ لذا اتخذت القرار، يونس هو الوحيد الذي أعرف له طريقًا من بين أفراد العائلة المفتتة، أعرف أن عينيه ستشكلان عائقًا أمام تواصله مع يامن، لكنها في نفس الوقت يسرت الأمر عليّ، فماذا كنت سأقول له كسبب لتركي يامن معه، مع وضعه هذا أصبح الأمر مبررًا .

عندما أخبرته بقرار بقاء يامن معه ليساعده في أمور حياته، وعندما أخبرته أن هذا اقتراح يامن نفسه، وأنه مذ رآه في المرة السابقة أحبه، وأن مرزوق نفسه لم يستطع الوقوف أمام قرار صائب اتخذه ابنه، كادت الدموع تفر من عينيه، كان في غاية التأثر والسعادة، لعله شعر أن القدر ما زال يحمل له أخبارًا سعيدة، وأن ما زال بالعالم رحماء، قال إن يامن هو ابنه الذي تمناه ذات يوم من الدنيا، وإنه حتمًا سيضعه فى عينيه :

«ولًا أقولك بلاش عينيا أشوفلك مكان سليم أحطك فيه أحسن ».

قالها ليامن وهو يضحك ويربت على كتفه بحنان، ساعتها ضحكت على ضحكاته، بينما ظل يامن صامتًا، بالتأكيد كان يفكر في أيامه القادمة، الأيام التي تنتظره مع خال ضرير، لا يعرف عنه شيئًا، ولم يقابله في حياته سوى مرتين، مع بعض المكالمات التليفونية السريعة في الأشهر السابقة، لم يشعر بداخله بأي سبب يجعله يقضي باقي عمره مع رجل لا تربطه به أي اهتمامات مشتركة، لم يكن يملك أي مبرر، ولم أكن أملك أي وعود يمكن أن أقدمها له، فقط تحدثت عن القدر وأمور مشابهة لذلك، كان بالتأكيد من الصعب على يامن أن يتفهمها، لكنني لم أكن أستطيع الانتظار ومشاهدته وهو يتحول مثل الباقين، لو كان بالمكان وباء فقد أنقذته، ولو لم يكن، فقد باعدت بينه وبين احتمال أن يراني كدمية مطاطية، فربما كان الدور دوري، أما معاناته، فجميعنا نعاني، كما أنه لا بد أن يتقبل ما نمر به بطريقة أفضل من ذلك، العالم مليء بأطفال مشردين وآخرين بلا آباء، هناك أطفال أفقدتهم الحروب والكوارث الطبيعية والحوادث أسرهم بالكامل، عليه أن يحمد الله أن له أسرة حتى لو كانت من المطاط، أنا جادة تمامًا فيما أقول، قد يأتي على الإنسان وقت يتمنى فيه أن يجد أي شيء ينتمي له وتربطه به صلة، أتذكر أنني قرأت ذات مرة قصة كان الولد فيها يتخذ ديكًا روميًا كأب له

بعد فقد والده بطريقة لا أذكرها الآن،
لا بد أن معاناته كانت أعظم، لا بد أن أبحث عنها، حتى أقرأها مع يامن في زيارتي القادمة له .

5

الشيخ فخر الدين كان أزهريًا معممًا، يأتي في كل يوم جمعة، يحفظني القرآن الكريم، خلال ذلك يحكي القليل من السيرة، وبعضًا من القيم ومكارم الأخلاق التي على الإنسان أن يتحلى بها، ثم يتركني قبل أذان الجمعة بنصف ساعة يجلس على كنبة بالصالة بجوار أبي، يتلو مجودًا سورة الكهف بصوته الجميل، حتى تحين الصلاة فننزل معًا، ثم نودعه بعدها، إلى حين لقائنا في الجمعة التالية.. الشيخ فخر الدين

لا يدري أننى نسيت معظم ما حفظت، ولكن شيئًا واحدًا قاله أذكره حتى الآن، أن الزرع يدعو لصاحبه، وأن من الممكن لإنسان دخول الجنة، فقط لشجرة زرعها واستظل بها آخر، أو أكل كائن من ثمرها، ذكرني أيضًا أن الشجرة تنتج أوكسجين، وأنها تخلصنا من ثاني أكسيد الكربون الضار، حتى ظللت أتخيل أن نبتة واحدة تكبر على يدي، تُعد مصنعًا لإنتاج الهواء النقي، وربما تكون سببًا في دخولي الجنة، من يومها حوّلت شرفتي لمزرعة صغيرة، أجهز فيها الزرع، وعند مرحلة معينة أشتله في مكان ما بالشارع، ليكبر ويستفيد منه الناس والهواء والدواب، كانت هذه نيتي، حتى تحولت لهواية ومتعة في حد ذاتها، لكني لم أكن حينها أعلم شيئًا عن مقدار الألم الذي تشعر به النبتة حين تنعزل عن بيئتها، لم أكن أعلم شيئًا عن آلامها حين تجد نفسها

في مكان خالٍ، أو وسط زرع آخر لا تعلم عنه شيئًا، لا تربطها به أي علاقة، وليس بينها وبينه أي ذكريات .

تذكرت ذلك فقط حين وجدت نفسي وحيدًا مع الخال يونس، وكأنني نبتة صغيرة تم شتلها بمكان ليس بينها وبينه ألفة .

في يوم واحد، وجدت نفسي أرحل عن غرفتي وشرفتها الواسعة، أترك الزرع والبراح الذي أمامي، أترك الناس الذين تربيت بينهم ومدرستي وأصحابي، لأنتقل إلى حيث يعيش الخال، مع بعض الفئران والسحالي والعقارب، الخال يونس الذي شاهدته لأول مرة في حياتي مع الزيارة الأولى، فقط منذ شهور، كان ما زال لديه بصيص من النور يتسرب لعينيه، فيرى الناس أشباحًا تتحرك، اليوم لم يعد لديه أي بصيص، صار ضريرًا يتخبط بين جدران الدنيا، حتى أنني لا أعرف كيف كانت ستصير حياته لو استمرت بدوني، أتيت له في وقت مناسب تمامًا بالنسبة له، وقاتل تمامًا بالنسبة لي .

هل من الممكن أن يكون القدر فعل فعلته بأبي وإخوتي حتى آتي إلى هنا في هذا التوقيت، وأمد يد المساعدة لخال ضرير، لم نكن نفكر فيه أو نشعر على الإطلاق بما يعاني .

في الحقيقة لم نكن نفكر في الخال، أو في أحد غيره؛ فأبي ولد وحيدًا، ولأمي أخوان، سامر يعيش ويعمل في دبي، والخال يونس الذي لم يبق سواه، كان يعمل «شيف» بأحد فنادق القوات المسلحة، ومع الضعف الكبير في بصره، بعد فشل عملية وأخرى، خرج إلى المعاش المبكر بأمر لجنة طبية، وصار معه كارت ممغنط يسحب به قيمة معاشه كاملًا نهاية كل شهر، المعاش كان كافيًا جدًا بالنسبة له، خاصة أنه وحيد ولا يعول أحدًا، ربما لهذا لم نفكر فيه، كانت أمي دومًا تقول إن يونس يستطيع إدارة أموره جيدًا، لم نكن نفكر سوى في كياننا كأسرة، كيف نحتفظ بمستوانا المعيشي، كيف نطور من أنفسنا ونضمن مستقبلا أفضل، أبي يعمل موظفًا بمكتب البريد، الذي لا يبعد كثيرًا عن البيت، يعمل فعليًا بالبريد حوالي ست ساعات في اليوم، وبجانب ذلك لدينا سيارة سوزوكي فان، يعمل عليها لتوصيل طلبات وجبات جاهزة، تقوم أمي بإعدادها طوال الليل، خلال ورديته الليلية في عمله الآخر، كفرد أمن بأحد مصانع زيت الزيتون، كان بالكاد يخطف ساعتين ليريح فيهما بدنه، وفى نوبة حراسته يخطف ساعتين كذلك، وكان هذا كافيًا جدًا، الآن يتشبث أبي بمكانه بجانب الدولاب ليل نهار، بينما تجهز أمي الطلبات ليلاً، وتقوم بتوصيلها نهارًا، أبي الذي كان يبدو طوال الوقت كمن ستفوته طائرة، أو كمن يعلم بوقت تنتهي فيه الحياة، كأنه يراه قريبًا جدًا فيحاول إنجاز

العديد من المهام، كان دومًا متعجلًا، دومًا ليس لديه وقت لفعل الأشياء،
لا وقت لراحته، لا وقت لنفسه، الراحة يخطفها في صورة دقائق قليلة مسروقة، فينام على كرسيه في البنك أثناء انتظار دوره، ينام تحت يد حلاق يقص شعره، أبي الذي كان يخيل لي أنه من الممكن أن يخطف دقائق من النوم واقفًا، لعله الآن لديه من الفراغ الكثير في وقفته هذه بجوار الدولاب، لعله أيضًا يفكر فى استغلال وقوفه الطويل هذا لإنجاز عمل يدر علينا دخلًا إضافيًا .

6

مكتب البريد وافق بالكاد على طلب الإجازة، لسنة دون راتب، بعدما دخلت لمديره، وحكيت له -كذبًا-عن الظروف التي يمر بها مرزوق، ومرضه الذي علم به زملاؤه في بدايته، حين كان مجرد شك في فيروس هاجم أحباله الصوتية، حكيت عن اضطراره للسفر لتلقي العلاج بالخارج عند أخيه، لم يكن لدي حيلة غير ذلك، كيف أواجه الناس بالحقيقة، ماذا سيقولون عن أسرة يتحول أفرادها لدمى، لا أثق في تصرفهم حينها، ولا أحب المتاجرة بآلامي وآلام أسرتي، لم أفضل سوى البقاء بجانبهم، والاطمئنان عليهم من وقت لآخر، وممارسة عملي بالطهي الذي أصبح ضرورة .

صارت حياتي خاوية من أي متعة، لم يعد لي هدف سوى أن يعود مرزوق والأولاد لطبيعتهم، أن أمسهم فأشعر بلحمهم ممتلئًا ودافئًا تحت يدي، كرهت ملمس المطاط المفرغ الرطب، كرهت رائحته النفاذة وكأنهم دمى خارجة للتو من المصنع، كرهت أيضًا بُعد يامن عني في مثل هذه الظروف، فشعرت أنني أحمل همًا فوق همي .

مرزوق لم يتحول لدمية مباشرة، الأمر صار معه بالتدريج، في البدء فقد النطق، صار يشير ويعبّر بعينيه، ساعتها تخيلت أن الأمر مجرد نزلة برد أصابته، أو أن

التهابًا أصاب أحباله الصوتية، ظللت أسوي له المشروبات الساخنة، يانسون، زنجبيل، ليمون دافئ .

كتب لي حينها واصفًا حالته بأنه لا يشعر بألم، أيام مرت على نفس الحال، ثم فجأة فقد حاسة السمع، حينها شعرت بالقلق الحقيقي، الموضوع بدا لي أكبر من توقعي، الطبيب شك أنها التهابات أصابت منطقة الأنف والأذن والحنجرة، وأنه أشبه بفيروس، كتب له مضادات حيوية قوية .

مرزوق ظل يكتب واصفًا حالته بأنها خالية من الألم، كان هذا يطمئنني ويقلقه، كتب أنه يشعر براحة لم يشعر بها من قبل، أيام وفقد البصر، لم يعد يرى، عيناه مفتوحتان، ولكنهما ثابتتان على نظرة بعيدة، فاقدتان لبريق الحياة، ولم تعودا ترمشان، كان يحاول الكتابة برغم فقده للبصر، واصفًا حالته أيضًا بخطوط صغيرة متداخلة، بأنه يشعر براحة وصفاء لم يشعر بهما في حياته، لم يمر الكثير حتى تحول جسده لما يشبه دمية من المطاط، كفه كان ينضغط بين يديَّ وكأن ليس به عظام، كل جسده كذلك، حين ضغطت على بطنه، بان أثر ضغطتي عند ظهره، ليبدو كدمية مجوفة، كان يتحرك ببطء وهو على هذا الوضع كإنسان آلي مخيف، ثم فجأة ثبت بجوار الدولاب، وكأن شحنه قد فرغ فجأة !

مازن وفريدة، لم يمرا بكل ذلك، وصلا للنتيجة النهائية مباشرة، مازن ثبت فوق سريره راقدًا على ظهره، واضعًا ساقًا فوق أخرى، وعيناه ثابتتان على نقطة ما بسقف الغرفة، بينما ثبتت فريدة، راقدة على بطنها، بساق منثنية لأعلى وأخرى مفرودة .

تركت كلًا منهم على نفس وضعه، وفي نفس مكانه، أتعامل معهم بحرص وكأنهم في حالتهم الطبيعية، ألمسهم فقط حين يستبد بي الشوق للمسهم، أو حين أمرر القطنة الطبية المبللة على شفاههم، لتبدو لامعة رطبة، وتعطي لمظهرهم شعورًا بالحياة .

بالأمس أصابتني كارثة جديدة، عندما أتيت بالقطنة المبللة، اقتربت من شفاههم، ساعتها اكتشفت الأمر الذي ملأني رعبًا، وجوههم بل وأجسادهم أيضًا، أصابتها تشققات خفيفة، وكأن شبكة من الخيوط الدقيقة كستهم بالكامل، كانوا كدمى بقيت لوقت طويل تحت شمس حارقة، عند لمس أحد أعضائهم يبدو جافًا متصلبًا، كأنه سيفرك ويتفتت لو زدت من الضغط عليه، مررت عليهم واحدًا تلو الآخر، جميعهم يعانون نفس الشيء، شعرت بالرعب، هل سأشهد اللحظة التي أراهم فيها ينهارون أمامي بدلاً من العودة للحياة، هل سأتحمل مثل هذه اللحظة، إذا كنت أعيش الآن على أمل أن يعودوا لي سالمين، فهل يمكن أن أعيش إذا تحققت مخاوفي، هل يمكن أن أدخل لحجراتهم، فأجد كلًا منهم

مجرد كومة من الفتات، أن يتحولوا في النهاية لنثار يتطاير أمام عيني.. هذا النوع من التفكير يرهقني، يمتص طاقتي،
لا بد أن أقاومه، لا بد أن أضع قدمي على طريق للمقاومة، طريق أصير معه أقوى، وعلى استعداد للبقاء من أجل استعادتهم، سمعت كثيرًا في الفترة الأخيرة من يقولون إننا لا نملك رفاهية اليأس، لم أكن أعي المعنى تمامًا، لكنني الآن فهمت، وصرت أردد نفس الجملة بداخلي طوال الوقت .

7

حين رأيت الخال يونس في المرة الثانية، كان مختلفًا تمامًا عنه عند زيارتنا الأولى، صار الآن مستسلمًا تمامًا، اعترف في داخله بأنه ضرير، وبأنه طوال الوقت في حاجة لمن يساعده، لم يعد يقاوم، ولم يعد ينزل للجلوس على المقهى، لتبادل الحكايات والأخبار مع أصدقائه، صار فقط يكتفي بالمكوث في بيته، احتياجاته يقضيها بالسلة المدلاة من نافذته الجانبية، لتطولها يد صبي محل العصير، أو صاحب محل البقالة، والمطعم المجاور له، يضطر للنزول فقط للحصول على قطعة الحشيش الملفوفة في ورق السلوفان، والتي اكتشفتها ذات مرة بالصدفة تحت مرتبة سريره، سرت بالخبرة أستطيع تمييز أثر الحشيش في تصرفاته، بالتجربة عرفت أنه حين يشرب، يصر على أن أسهر معه، ينظر لي بطيبة، يقول بصدق بادٍ في عينيه ونبرة صوته :

«يامن.. أنا بحبك أوي يا يامن ».

ثم تنتابه رغبة عارمة في الحكي، لا يوقفها سوى انخراطه في النوم المفاجئ .

بيت الخال، كانت له واجهة على شارع بين السرايات، تطل بالضبط من شباكه على واجهة كلية التجارة

بجامعة القاهرة، الحجرة الأخرى كانت تطل على الشارع الجانبي، الذي يحوي باب المنزل المكون من دورين فقط، لم يكن يسكنه إلا الخال، استأجر حجرته منذ سنوات طويلة، حين كان طالبًا جامعيًا .

الطلبة حينها كانوا يستأجرون الغرف المشتركة، جدي رفض ذلك، أصر على أن يستأجر له غرفة بشكل قانوني، وبعقد يضمن له حقوقه، حتى لا يتم طرده منها في أيام المذاكرة، أو الامتحانات لسبب أو لآخر، كان الخال يسكن الغرفة منفردًا، وباقي الحجرات بالبيت تضم كل منها ثلاثة أو أربعة طلبة، الخال أنهى تعليمه بكلية السياحة والفنادق، التحق بوظيفته، لم يتخل عن الحجرة، أبقى عليها حتى بعدما تزوج وانتقل لشقة إيجار جديد كبيرة بالقرب من ميدان الجيزة، احتفظ في غرفته بكل كراكيب العزوبية، كتب ومجلات وأثاث بسيط، لكنه ظل مرتبطًا بكل قطعة منه لسنوات طويلة، فصارت بينهما علاقة وطيدة، لا يمكن أن تنفك بسهولة .

الخال تزوج لسنة واحدة، قضاها في مشاكل لا حصر لها، كان ككائن بري من الصعب أن يقبل الترويض، طوال الوقت يقاوم محاولات زوجته: أين كنت؟ متى ستعود؟ من حدثت؟ من رأيت؟ في النهاية باءت محاولاتها بالفشل، انفصلا وعاد الخال لحجرته، التي بدت كبيئة طبيعية له .

البيت تبدل حاله مع الوقت، بدا عليه القِدم، خرج الطلبة منه واحدًا تلو الآخر، ومع مرور الزمن لم يعد أحد يرغب في السكن به، صاحبه اللبناني سافر ولم يعد، ولا أحد يعلم عنه شيئًا، لم يبق بالبيت المتهالك سوى الخال يونس، فصار يستخدم دورة المياه المشتركة لوحده، والصالة المشتركة لوحده، صار لديه قفل على الباب الخارجي للبيت، لكنه أبدًا لم يستخدمه، كان البيت مفتوح الباب طوال الوقت، الخال اكتفى فقط بعمل رزة بقفل على باب شقته، صارت حجرته شقة كاملة، بعدما وضع يده على الحجرة الأخرى المطلة على الحارة الجانبية، والتي كان يستأجرها آخر مرة طلبة من الصعيد، فتح الخال الحجرة وجدها خالية إلا من بلاص فخار يحتوي على جبن قديم ومش، احتفظ به وصار من وقت لآخر يزوده بالجبن القريش واللبن، فبدا كمخزون استراتيجي، في أي وقت لا يجد ما يأكله يستخرج منه قطعة بجانب رغيف وحبة طماطم أو خيار، يتبعهم بكوب شاي ثقيل وسيجارة، وكما يقول فإنه لا يحتاج من الدنيا أكثر من ذلك، كانت حياته المتقشفة هذه أول ما لفت نظري، الخال ليس بخيلًا، ولكنه مستغن، يكتفي دومًا بالقليل، كسرة خبز تكفيه، يرتدي ما يستره بلا أي اهتمام بتفاصيل الخامة، الألوان، التناسق .

أحيانًا أتخيل أنه يكتفي من الحياة بالتنفس، هو أيضًا يمارس ما يمارس من تقشف كأمر طبيعي، كأسلوب

حياة، فلا تشعر بأنه الزاهد المتبتل، ولا بأنه اليائس المحبط، ربما وجودي هو ما جعله يهتم في كثير من الأحيان بأن يكون هناك ميعاد منتظم للوجبات، وجعلني أتعلم أن الوجبة من الممكن أن تكون أي شيء يخرس الجوع، ذات مرة أردت أن ألفت انتباهه إلى أنني مللت أكل الجبن القديم، كانت بعض الألفة قد دبت بيننا، فقلت له مداعبًا، بعدما كان أكلنا لمدة ثلاثة أيام سابقة عبارة عن جبن قديم بالطماطم :

«والله يا خال أنا ممكن أعيش على الجبنة دي مش تلات أيام بس.. لأ.. تلات شهور ».

«ومين سمعك يابن اختي، تعرف أنا بقى ممكن أعيش تلات شهور مش على الجبنة، لأ.. على الدود اللي جوه الجبنة ».

ساعتها خرجت مني كلمة «يع» بتلقائية، معربًا عن تضرري مما يقول، ضحك ساخرًا وظل يناديني «مستر يع» لما يزيد على سنة .

8

جرس الباب رن، منذ تحولت فريدة لدمية، لم أعد أستجيب لرنين الجرس؛ فكيف أستقبل أحدًا وهي بالصالة بادية للأعين، لكن هذه المرة، مع توتري ومع إلحاح من بالباب وجدتني أرد، كان كشاف الكهرباء، طالبًا الدخول لقراءة الاستهلاك بنفسه، كما يحدث في كل فترة، ربما لضبط خطأ ما في الفواتير، طالبته من خلف الباب أن ينتظر لدقيقة، قمت خلالها سريعًا بتحريك كراسي السفرة والأنتريه من أماكنها، حتى أبدو وكأنني أقوم بترتيب الشقة، سحبت بعض الوسائد، وضعتها حول فريدة، ثم وضعت من فوقها بحرص بعض الملابس، لتبدو ككومة من الملابس غير المرتبة، الرجل دخل معتذرًا، حصل على القراءة المطلوبة، ولم ينس أن يجول ببصره بالصالة قبل أن يغادر المكان، لم تتوقف عيناه على فريدة، اكتشفت بعد رحيله، أن دقات قلبي صارت أسرع، كنت أود لو أستريح قليلاً، لكنني لم أستطع الجلوس قبل رفع الملابس المكومة من فوقها، اقتربت منها، ما زالت بنفس تشققاتها، جلست بجانبها، أتحسسها برفق، أرجوها ألا تتفتت، ألا ترحل وتتركني، ألا تأخذ مني الأمل الذي من أجله أحيا .

حكيت لها عن أملي في أن تبقى، أن تعود وتملأ الدنيا من حولي بالبهجة، أن يمر الزمان بنا وأصير عجوزًا

ضعيفة، ساعتها ستكون بجانبي، حدثتها عن أهمية البنت في مثل هذه المرحلة، كيف تقدم لأمها ما لا يستطيع الأولاد تقديمه، ما لا يستطيع أحد غيرها تقديمه .

حكيت كيف كانت فرحتنا أنا ومرزوق حين علمنا بالحمل، تمنينا وقتها أن تكون بنتًا؛ لدينا ولدان، وكنت أحلم ببنت أقوم بتمشيط شعرها، بشراء فساتينها الملونة المزدانة بالفراشات والورود، وكان مرزوق أيضًا يحلم بحنان الابنة، وبدلعها معه.. تمنيت أن تعود وأقسمت أنني لن أطالبها أبدًا بعمل واجباتها المدرسية، تعود كما كانت وستكون حرة تمامًا فيما تفعل .

ظللت أحكي حتى حدث ما لم أتوقعه، ما كذبته عيناي في بادئ الأمر؛ كنت أحكي وكانت التشققات تتوارى، اقتربت من جسدها مدققة، اكتشفت أنني عندما أتوقف عن الحكي تثبت التشققات على وضعها، أكمل فتبدأ تدريجيًا في الاختفاء؛ أكملت حكاياتي حول أبيها وكيف تعرفت عليه، كيف اعترف لي بحبه، تفاصيل زواجنا، حتى اختفت كل التشققات من جسدها .

ما حدث معها قمت بتكراره مع مازن ومرزوق، حتى اختفت تشققات جسديهما تمامًا، كنت فرحة، زاد ذلك من أملي في شفائهم، عرفت أنهم يشعرون بي، وبأنني عندما انشغلت عن الجلوس معهم في الفترة الأخيرة - بسبب انشغالي مع يامن تارة لتحويل أوراقه لمدرسة

بجوار يونس، وأخرى لتطهير البيت من الحشرات - حدث لهم ما حدث من تصدع، حينها أدركت أنهم سيبقون ما بقي اهتمامي وتفرغي لهم، سيبقون ما بقيت بيننا الحكايات .

9

كان الخال يونس يخاف على البيت من الأحمال، لذا اشترت أمي سريرا وترابيزة سهلة الطي، حتى أستخدمها في المذاكرة، ترابيزة خفيفة من خشب «الفورامايكا»، بعدما رفض الخال تمامًا وجود مكتب ودولاب .

كنت أعتقد أنه سوف يبقى في حجرته المطلة على شارع بين السرايات الرئيسي، ويجعلني أحصل على غرفة الشارع الجانبي، خاصة أنها خاوية من الأثاث، سوى من كرسي خشبي واحد بجوار شباكها المغلق، المليء بالأتربة والعناكب .

في البداية اقترح أن أبقى معه في غرفة الشارع الرئيسي، وأن تبقى الغرفة الأخرى فارغة، ولما لم يستطع تقديم مبرر منطقي، قال :

«نسيبها فاضية للظروف ».

ولكن أي ظروف أكبر من هذه؟ بالتأكيد شعر الخال بأن رأيه غير منطقي، لذا تراجع سريعًا، وافق على أن أقوم وأمي بتحويل كل أشيائه إلى غرفة الحارة الجانبية، لأحصل على غرفة الشارع الرئيسي، حينها شكرته أمي على تفانيه وتفضيله لي، فلم يكن لفعلته أي مغزى، سوى أنه يفضلني، يأسرني بشمس وضوء أكثر، هواء

أكثر، ورؤية أكثر اتساعًا، ففي غرفة الشارع الرئيسي، لا يحد بصرك إلا مبنى كلية التجارة هناك على بعد كبير، ولن تصطدم عيناك به إلا بعد عبور شارعين كبيرين بينهما جزيرة، وبعدهما رصيف، وسور الجامعة، ثم مساحة كبيرة من العشب، ثم طريق، ومن بعده المبنى بشبابيكه الكبيرة العالية المفتوحة دومًا.. أما شباك الخال فهو يطل فقط على الحارة الجانبية، فما أن تطل منه حتى تصطدم عيناك بشباك الجيران الذي يبعد عنك بأقل من أربعة أمتار فقط، شباك مفتوح دومًا، تأتينا منه أصوات وروائح طوال الوقت .

من شباك الحارة الجانبية يأتينا بوضوح صوت الناس والبائعين، صوت أطفال يبكون، وأولاد يتبادلون السباب، صوت الجارة حديثة الزواج التي تسكن البيت المقابل، وهى تنادي على بائع جائل، أو وهي تشهق مع طشة ملوخية، وتضحك مع فيلم كوميدي، صوت الزوج وهو يناديها، طالبًا كوبًا من الشاي، أو مستفسرًا عن مكان جواربه، رائحة عطرها تأتينا أحيانًا داخل شقتنا، ورائحة غسيلها الزاهي، وطوال الوقت نشم رائحة طبيخها، الذي ينم عن طاهية ماهرة، هل اختار الخال الغرفة الجانبية حتى تأتيه الروائح والأصوات التي تنم عن الحياة الحقيقية، بالشارع الرئيسي تأتيني فقط أصوات العربات المسرعة، وبعض همهمات المارة، التي من الصعب تبين ولو جملة واحدة منها، بالشارع الجانبي كل

الجمل واضحة ومفسرة بلا حاجة لتدقيق، بالشارع الجانبي صخب وشبق ودعوة صريحة للحياة .

بشارعي الرئيسي الذي بات يطل شباكي عليه، ضوضاء اعتدت عليها بعد وقت قليل، وضوء شمس صار صديقي، كنت أمسك بشطفة صغيرة من مرآة، أسلطها داخل إحدى حجرات الجامعة، يجتاز الضوء كل المسافة، يدخل ويجذب أنظار الطلبة والطالبات، لعلهم يضحكون، لعلهم يتساءلون عن مصدره، لكنهم بالتأكيد لا يعرفون أنها أولى محاولاتي للعب، أولى محاولاتي للتأقلم مع الوضع، وخلق عالم خاص بي أولى محاولات النسيان واجتياز المرحلة .

10

كنت في بداية الأمر لا أملك لأسرتي سوى الأمل، أعرف أنه ملاذي الوحيد، وأنه كل ما أملك حتى يعودوا لي سالمين، كما كانوا من لحم ودم، الآن صرت أملك أيضًا الحكايات، التي زادت من أملي، أخبرتني أنهم موجودون، وأنهم ليسوا مجرد دمى مجوفة لا تشعر ولا تحس، الحكايات داوت تشققات أجسادهم، الحكايات هي الملاذ والمدد الذي لا ينقطع بيني وبينهم .

طوال الوقت أجلس بجوارهم الواحد تلو الآخر، أحكي كل تفاصيل اليوم، كل مشاعري وتصوراتي عما يدور من حولي، ما أحكيه أعيده وأكرره عليهم واحدا تلو الآخر دون ملل، اعتبرت أن الحكايات بديل الطهي، في الماضي كنت أقضي يومي في المطبخ، أعد لهم الأصناف المختلفة، الآن صرت أقضي جُلّ يومي بجانبهم، أقص الحكايات لأجلهم كأنها زادهم، وكأنني ألقمهم حكايات ليستمر الوجود .

عند لحظة معينة شعرت أن المعادلة لا بد أن تتسع، لا بد أن أبحث عن شيء آخر، يساعدهم على العودة، ألا أكتفي بما وصلت إليه، وأن أبحث عما يدعم موقفي، حتى وصلت للتوثيق، أن أوثق كل ما حدث بالتواريخ، في يوم كذا تحول مرزوق لدمية، وفى يوم كذا لحق به

مازن، ثم فريدة بتاريخ كذا، أنا أملك ذاكرة، أملك توثيقا سيضع كل الحقائق حاضرة وملموسة أمام عيني، التوثيق لا شك سيعطيني قدرة أفضل لأفكر وأتحرك بشكل علمي حتى أجد حلًا لمشكلتنا .

تذكرت يوم كنا نجلس جميعًا كأسرة، نشاهد أحد البرامج المسائية، أمامنا طبق ممتلئ بالفيشار، نأكل ونحكي وننصت للبرنامج من حين لآخر، قال مرزوق حينها فجأة، إن زلزالًا قد حدث، وإنه شعر به وبالأرض تميد من تحته، ساعتها أيد كلامه مازن وفريدة، شعرا بما شعر، ووصفا شعورهما كما وصفه مرزوق بالضبط، بينما أنا ويامن لم نشعر بأي شيء، رفضنا كل ما قيل، أكدت رأيي حينها بأنه لو كان زلزالًا قد حدث بالفعل كما يدعون، لكانت النجفة
ما زالت تهتز، لكنها ثابتة في مكانها بالسقف بشكل طبيعي، أصروا على موقفهم، حتى أن مرزوق قام بالتحويل إلى قناة الأخبار، تابعناها، لم تذكر حينها أي سيرة لزلازل، ظل مركزًا مع شريط الأخبار، ضحكنا أنا ويامن، واعتبرناه رهانًا كسبناه، نسينا الموضوع تمامًا، الآن فقط تذكرت الحدث مرة أخرى، لماذا كان شعورهم مشتركًا حينها بشيء بدا لنا وهميًا، لماذا تحولوا لدمى بينما ما زلت أنا ويامن لم يصيبنا شيء، هل لما حدث سبب أو علاقة لما وصلوا إليه، لا أعرف ما علاقة ما أتذكره الآن بالواقع .

عدت لتواريخ تحولهم التي سجلتها بدقة، وجدت بين تحول مرزوق ومازن تسعة أشهر تقريبًا، وبين تحول مازن وفريدة المدة نفسها أيضًا، لماذا تسعة أشهر، ما دلالة هذا الرقم الذي لا يخلو من معنى، ما مدى ارتباطه بما وصلوا إليه، هل أتناسى كل ما سبق، هل أتناسى أيضًا أن برجوعي للتاريخ الهجري، وجدتهم جميعًا قد تحولوا لدمى مطاطية في اليوم الرابع عشر من الشهر الهجري باختلافه؟ أي يوم يكون القمر فيه مكتملًا، اليوم الذي يكون القمر في أبهى صوره، لماذا يكون هو اليوم الذي تتحول فيه أسرتي لدمى، لماذا يكون هو اليوم الذي تتحول فيه حياتي إلى جحيم، هل أعتبر أيضًا كل ما سبق مصادفة، هل أنا بذلك أبالغ وأحاول كغريق التعلق بقشة؟ جاء في بالي أن أضع الحقائق التي توصلت إليها أمام أحد يفوقني خبرة، فربما استطاع استخراج روابط بينهم أكثر مما استخرجت، ربما استطاع الوصول لعلاقات تساعدني في فهم أكثر، ولكن لمن سألجأ، من يمكن أن يكون سندي في مثل هذا الموقف.. لا أحد .

11

للخال طقوس لا يتعداها أبدًا، طقوس بسيطة لكنه يتمسك بها، مع الوقت صار يعتمد عليّ في تحقيقها، حتى صارت طقوسي أنا أيضًا ..

أستيقظ من النوم، أضع بيضتين على عين البوتاجاز الكهربائي ذي العينين؛ ليتم سلقهما، وعلى الأخرى أضع صفيحة صغيرة بعد ملئها بالماء، حتى تتم تدفئته، ليستخدمه الخال للتبرؤ بعد قضاء حاجته، لم يكن يطيق الماء البارد في الشتاء أو حتى في الصيف، يخرج من الحمام، بعدما يكون صوت زومانه وتألمه قد وصلني؛ لمعاناته من إمساك مزمن، يتناول البيضة المسلوقة مع رغيف، بينما أصب له كوب الشاي بالنعناع، أضع له متطلباته على الترابيزة القديمة في الركن الأيمن بالصالة، أذهب للمدرسة أعود لأجده -في معظم الأوقات-عمل وجبة خفيفة، من المكونات التي طلب تجهيزها قبل ذهابي، يصنع في الغالب بطاطس مسلوقة ومهروسة مع ملعقة زيت، مكرونة مطهوة بمرقة الدجاج الجاهزة، طبق من الفول بالطحينة ...

نأكل ما جهزه الخال، أو ما يرسلني لشرائه جاهزًا، عندما يكسل عن الطهي، أو عندما نمل ونريد أكل شيء دسم .

ننهي الطعام، أعمل للخال كوب الشاي بالنعناع، ثم أجلس لساعة أو ساعتين، أنتهي خلالهما من عمل واجباتي المدرسية، كان طوال الوقت يسألني إن كنت أحتاج مساعدته في إيضاح شيء، لم أكن حينها أعلم ببراعته، حتى احتجت لمساعدته في إجراء عمليات حسابية على الكسور الاعتيادية، وجدته على علم بتوحيد المقامات، وبكل تفاصيل الحل، الذي شرحه لي بكل بساطة :

«اعترفت دلوقت بخالك يا ابن هانم ».

صرت من وقتها ألجأ إليه في توضيح ما غمض من دروس، وكان إذا عجز عن الإجابة، لا يستسلم، بل يطلب مني قراءة ما ورد بالكتاب من شرح وأمثلة، ثم فجأة :

«هوب، بس كده، اربط هنا ».

ويكون قوله هذا إيذانًا بأنه فهم، يبدأ بعدها مباشرة في الشرح، بطريقته المبسطة، حتى أنتهي راضيًا من عمل واجباتي المدرسية، لأبدأ في عمل الطقس الآخر، الذي صار سرًا خاصًا، منذ أطلعني عليه الخال :

«تعالى هخليك تشوف حاجة، بس دا يبقى سر بيني وبينك ».

حينها عرفت لماذا أصر الخال على الحصول على الغرفة الداخلية .

كنت طوال الوقت أشعر بالذنب تجاهه وهو يعتقد أنني هنا لأجله، وأنني ضحيت بحياتي القديمة كلها لأجل الوقوف بجانبه، وعندما ترك لي حجرته زاد شعوري بالذنب تجاهه، الآن تحررت من هذا الشعور، عندما أطلعني على سره، عرفت أنه فضّل البقاء بالغرفة الداخلية، حتى يستمع لصوت الجارة، الخال كانت حياته فارغة، بلا تفاصيل، حتى تزوج الجار بالشقة المقابلة، ولأن الخال كما هو معلوم للجميع ضرير، والبيت لا يسكنه سواه، فقد كان شباك الجار دومًا مفتوحًا، وزوجته تتحرك في حجرتها بكل حرية فلا أحد أمامها من الممكن أن يكشف شباكها سوى شباك الشيخ يونس، كما صار الجيران يطلقون عليه، فكان الخال يستمع لكل كلماتها، ويشم روائحها، بل صار يدقق أحيانًا راغبًا في سماع صوت أنفاسها نهارًا، وتنهداتها ليلًا، الخال صار مغرمًا بها، عرف أن اسمها «فوفا»، يقف في شباكه صباحًا، في الوقت الذي تعرض مفروشاتها للهواء، حين تراه، تقول بدلالها المعهود، وهي ترتدي ملابس البيت المعتادة :

«صباح الخير يا شيخ يونس ».

كان الخال يرد عليها، وقلبه ينتفض بقوة بين ضلوعه :

«أهلًا.. صباح الفل يا ست الكل ».

لم يكن يدور بينهما أكثر من هذا، ولكنه كان ينتظر كل يوم، حتى يستمع لاسمه منطلقًا من بين شفتيها، فتكتسي ملامحه بفرحة طفولية .

الخال كان يستمع لما تفعل أو تقول، ويتخيل هيئتها، قضى ما يقرب من سنة في تخيل مستمر، لملامحها، ملابسها، حركاتها، حتى أتيت أنا لأفك له كل تلك الشفرات، صرت مترجمه، الذي يفسر له كل ما يسمع، فصار كمن يرى، في بادئ الأمر، لم يلفت نظري لشيء غير طبيعي، بدا كمن يستكشف الطريق إليّ بحرص، وبطول بال، قال لي بعدما أنهيت واجباتي، وشرح لي درس النحو، المضاف والمضاف إليه :

«إيه رأيك يا أبو اليُمن، من النهاردة، أنت عينيا ».

في البداية لم أفهم ما يقصد، شكرته ظنًا أنه يمتدحني، ضحك، ولم ينكر المعنى الذي فهمته، ثم أوضح أنني سأصير عينه التي يرى بها :

«يا يامن أنا عايش مع ناس بقالي سنين، معرفش حتى شكلهم ».

سألني عن ملامح الحاج محمود، صاحب المطعم الذي يمدنا بالفول والحواوشي والفراخ المشوية أحيانًا، وعن

ملامح أيمن صبي محل العصير، الذي يوصل أكياس العصير للسلة المدلاة .

في البداية لم أكن أعرف كيف أصف ملامح إنسان، حتى صار يسألني وأجيب، عن لون البشرة، العينين، لون الشعر وطبيعته، وهكذا، صار يدربني ليومين، بصبر وحنكة، لفت نظري للمجاز، أن للغة أسرارًا، كيف تجعلنا اللغة نرى، ونسمع، ونحس .

حتى وصل مع اليوم الثالث، لمدام فوفا، صرت أكثر احترافًا، وكلما وصفتُ جزءًا يردد بكل حماس :

«الله الله.. تبارك الخلاق فيما خلق ».

«بيضا زي اللبن ».

«الله ».

«عيونها بلون السما، شعرها سايح، طويل، ولونه أسود ليل ».

«ما شاء الله.. قول يابن هانم قول ».

«الشفايف حمرا زي الدم ».

«والحواجب؟ ».

سألني، ولم أكن وصفت حاجبًا من قبل، ولم تكن ذاكرتي تحتفظ بشكل حاجب مدام فوفا، سألني عن أشياء أخرى كثيرة لم أكن محتفظًا بها في ذاكرتي، لذلك كان علينا أن نلجأ للشباك المغلق، ذي الشيش المترّب، كانت به خشبة منزوعة، تسببت في وجود فتحة بعرض يقترب من ثلاثة سنتيمترات، بدت وكأنها نافذتي على عالم جديد، لم يلفت نظري إليه سوى الخال يونس .

كنت في بعض الأحيان تطيب لي مشاكسته، قلت إنني لا أعرف ما الذي يعود علينا من فوفا، هى مجرد جارة مثل أي واحدة من الجارات، لكنه اعترض بشدة، سألني إن كنت أعرف «ركية النار» والجلوس في الشتاء حولها طلبًا للدفء، قال لي حين تشتعل ركية النار في ليلة شتوية شديدة البرودة، وينبعث دفؤها، ويتطاير الدخان مع الهواء جهة اليمين، هناك من يجلس قريبًا وعن يسارها فيستمتع بالدفء، وهناك من يجلس قريبًا وعن يمينها فيستفيد بالدفء ويعاني من الدخان، آخرون يجلسون بعيدًا وعن يسارها فلا يطوله الدفء، ومن يجلس بعيدًا وعن يمينها فلا يطوله الدفء أيضًا لكنه يعاني من الدخان، ولكن بلا شك سينعم الجميع بضوئها، هكذا فوفا بالنسبة لنا، كركية نار .

لم أفهم حينها بالضبط ما يود الخال قوله، لكنني لم أحب أن أزيد، في ذلك اليوم بدا لي راضيًا تمامًا، وكأنه

نجح في الوصول لشيء ظل يخطط له كثيرًا، وكانت المرة الأولى التي يلعب فيها معي لعبتنا التي بت أفضلها، والتي تطورت معنا تدريجيًا، أن يقول كلمة فأضع لها تعريفًا، ثم أنطق نفس الكلمة مطالبًا إياه بتعريف آخر من وجهة نظره، قال لي «الأم»، فقلت :

«حملتني تسعة أشهر وأرضعتني سنتين ».

رددت له الكلمة فقال :

«واحة القلوب التائهة، وينبوع الحنان الذي لا ينضب ».

كان الشرط الذي وضعه الخال أن نتحدث باللغة العربية الفصحى قدر المستطاع، بعد اللعبة تعودنا أن يوضح لي ما غمض من كلمات، مثل: «واحة، ينبوع، ينضب».
تعلقت باللعبة، وصرنا
لا نكتفي بالتعريف، بل يمكن أن ننسج حكاية، أو نسرد انطباعًا تركته الكلمة لدينا، كل ذلك دون أن يقول لي وقتها أنها كانت في البداية مجرد محاولة مبتكرة منه لتقويتي في التعبير بالفصحى، بعدما لاحظ حصولي على أقل الدرجات في اللغة العربية وخاصة التعبير .

12

كان التفتيش في الذاكرة، ومحاولة الوصول لسبب تحولهم لدمى، أشبه بفتح خُرَّاج ومحاولة تنظيفه، هو شيء مؤلم، لكن لا بد منه، كنت أراهم من أمامي حين كانوا يتحركون وأستمع لضحكاتهم، تعود إلى ذاكرتي كلماتهم وتعليقاتهم، أنبش في محاولة لاستخراج جملة، أو حتى كلمة تساعدني على استعادتهم، لكن في النهاية، أعود لواقعي منهكة، أعود أكثر حيرة، أظل طوال الوقت في محاولة لإيجاد صلة بين مجموعة من المتفرقات، وكنت دائمًا أفشل، حتى الآن وبالرغم من التفكير المضني والبقاء بلا نوم لأيام، لم أجد أي علاقة بين تحولهم لدمى وشعورهم الوهمي بالزلزال، أو بين تحولهم واكتمال القمر !

كل ما خرجت به هو ازدياد حيرتي، وشعوري في كل مرة بأنني كمن يحاول الإيقاع بشبح، أشعر بضعف موقفي، بمطاردتي لأشياء تراني ولا أراها .

أتذكر الآن حين كنت طفلة، كنا نعيش في بيت ريفي بسيط، حولته أمي إلى جنة صغيرة، تضمني وإخوتي، ذات يوم وجد أبي حية في الحديقة الصغيرة الملحقة بالبيت، قتلها وقام بتحنيطها، ووضعها متباهيًا في غرفة الاستقبال، حين أتت جدتي لزيارتنا ورأتها، صعقها

ما فعل أبي، قالت إن لا بد للحية من خليل، بالتأكيد سيأتي وينتقم من أحد سكان البيت :

«مش خايفة على نفسك يا حزينة، خافي على ولادك ».

قالتها الجدة لأمي، فبدا الخوف مباشرة في عينيها، في هذه الليلة نمنا جميعًا على سرير واحد، وبقيت أمي مستيقظة طوال الليل تقاوم النوم، وتقوم على حراستنا. في الصباح مر الرفاعي بشارعنا عارضًا خدماته، لأول مرة تأخذ أمي قرارًا في غير وجود أبي، الذي كان في عمله، اقترب الرجل بعدما ناديته، جلس عند باب البيت، أخذ يردد تعويذاته التي كنت أحاول التقاط بعض كلماتها، وبعد قليل، وجدنا ثعبانًا ضخمًا يتسلل خارجًا من قلب بيتنا ليدخل مستسلمًا في جراب من القماش السميك كان في حوزة الرجل !

الثعبان كان يتربص بنا بالفعل، وكان يرانا ولا نراه، لكنه الرفاعي الأكثر خبرة، بأقل مجهود أنهى حكاية كان من الممكن أن تكون كابوسية .

أنا الآن لا أجد مثل هذا الرفاعي، ليس سواي في مواجهة شبح قاسٍ، لا أملك ضده شيئًا .

عدت مرة أخرى لحكاياتي، صرت أشعر أنها الشيء الذي ينتظرونه مني طوال الوقت .

كل تفاصيل اليوم أحكيها لهم، ويحدث ما ظللت أكذبه، أحكي وأشعر بوجود أثر لحكاياتي على وجوههم .

عندما حكيت عن الرجل الضخم ذي النابين البارزين الذي يسكن وحيدًا على أطراف المدينة، ويشاع أنه يأكل لحوم البشر، هم يعرفونه، رأوه من قبل يتسوق، ورأوه مرة يصطاد العصافير ببندقيته الرش، وحين تسقط إحداها يفصل رأسها عن جسدها بأسنانه، يبصقها على الأرض ويلقي بالجسد داخل شنطة قماش تشبه الجراب معلقة في كتفه، كانوا يطلبون سماع أخباره دومًا من أبيهم، هاتفني اليوم طالبًا وجبة من الأرز والخضار المشكل مع نصف دجاجة نيئة، وحين كررت الكلمة متعجبة للاستفسار، كرر طلبه بصوت متحشرج، تخيلت معه أنه سيتجسد أمامي ويلتهمني، بينما أحكي لمحت الهلع مرتسمًا على وجوههم، كما لمحت البسمة حين قصصت حكاية سيد مهدي مع أبيهم، برغم أنها حكاية مريرة لكنها دومًا تنتزع البسمة من شفاه من يسمعها .

سيد مهدي يلعب في دماغ مرزوق

بدأت الحكاية كما ذكر مرزوق لي من قبل، مع سنة 1987 ، حين كان وقتها تلميذًا بالصف الثاني الإعدادي، بالضبط في اليوم الأول من العام الدراسي، ولقائه مع سيد مهدي مدرس التاريخ الجديد بالمدرسة، كان من الطلة الأولى يشعرك باختلافه: نحيف، ذو شعر أبيض

طويل، ونظارة طبية فضية الإطار، لا يتخلى عن ارتداء جاكت بدلة فوق القميص والبنطلون، وإن كان لا يملك سوى ثلاثة جواكت، لكنه يحافظ دومًا على مظهره نظيفًا مهندمًا، سيد مهدي كان المدرس الوحيد الذي يهتم بجوار المنهج بالقضايا العامة، اقترب من الخمسين، لكنه أكثر حماسًا من المدرسين الأصغر سنًا، تصلك طاقته وإيمانه بما يقول فيؤثر ويقنع، فى كل حصة ينقل انفعاله تجاه موضوع ما، خيانة أبو الذهب لعلي بك الكبير، توقيع اتفاقية كامب ديفيد، ضرب المفاعل النووي العراقي، ثم انتشار خرائط تحمل اسم إسرائيل بدلًا من فلسطين ...

سيد مهدي استطاع بحسبة بسيطة على السبورة إقناعهم بأنهم الجيل الذي سيحارب، وأن الحرب آتية لا محالة، وأن السلام هو سلام وهمي، ولا بد أن نستعد، كان كلما رأى فعلًا تافهًا من أحد التلاميذ أثناء الحصة يقول :

«بقى ده واحد هيحارب إسرائيل؟ ».

يقولها آسفًا، فيشعر الولد بالحرج من فعله وينكمش صامتًا لباقي الحصة .

سيد مهدي كان صادق اللهجة، الصدق الذي دفع مرزوق للإيمان بما يقول، ربما كان يصاب باليأس من جيل يبدو مغيبًا، بالتأكيد مرض، واكتأب .

كان لا بد أن يعرف أن كلماته عاشت بداخل أحدهم، أثرت فيه؛ فلم يشرب سجائر، ولم يمارس العادة السرية، أو ينتظر أمام مدرسة البنات لمعاكسة إحداهن، لأن كل هذا لا يليق بمقاتل، مرزوق كان يسير منتصب القامة، مسرعًا في خطوه، يمشي ويجري لمسافات طويلة، تعوّد أن يقاوم كل ما يحب، يقاوم كل ما يعتاد عليه، حتى لو كان كوبًا من الشاي، أو قطعة من الحلوى، فلا يليق بجندي مقاتل أن يضعف أمام شيء، ظلت أفكار سيد مهدي بداخله، تتلقى الصدمة وراء الأخرى، اجتياح القوات العراقية للكويت، ضرب فكرة القومية العربية وجيش الدفاع العربي المشترك، التيار العام في اتجاه، وأفكار سيد مهدي بداخله في اتجاه آخر، أنهى مرزوق دراسته بتقدير جيد جدًا، أنهى تجنيده بأحد الأسلحة المقاتلة بشهادة قدوة حسنة، صار أبا لثلاثة أبناء، ومع كل استعداده النفسي للقتال، كان أكبر ما واجه في الحقيقة، فأرًا تسلل لشقتنا ذات يوم! وبعد جهد ساعتين، هرب من حيث أتى، لم يقضِ عليه في النهاية، وظل يحاول إقناعنا بأن في هروب الفأر انتصارا حقيقيا لنا، وأن فيما حدث نصرا تكتيكيا، ومن حينها صار النصر التكتيكي من مصطلحات بيتنا التي تضحكنا

ولا يعلم دلالتها أحد غيرنا، فحين شاط الأرز واضطررنا لأكل السمك بالخبز ونحن لم نعتد ذلك، قلت له إنه طهي تكتيكي .

انتهيت من الحكي، ولمحت البسمة تعلو شفاههم، لكنها ابتسامة خفيفة، كأنها تبدو وتختفي في لمح البصر، فتتركني مرة أخرى في حيرة، هل كان هناك ابتسامة بالفعل، هل يهيأ لي ذلك، هل هى رغبتي في الشعور بأنني أحكي لأناس طبيعيين يتفاعلون مع ما أحكي، وأنهم ليسوا مجرد دمى مجوفة بلا قلب، تلك اللمحة السريعة، التي بدت واختفت قبل أن أمسك بها، قبل أن أفرح ويتغلغل شعورها بداخلي، فأشعر بأنني لست وحيدة، أنني موجودة مع أحبتي، أحكي لهم ويتفاعلون ويشعرون بما أقول، لم أكن أملك سوى أن أصدقها، وأن أفرح بما صدقت، أنهم بالفعل يتفاعلون معي، يفرحون، ويتألمون لما أفعل ولما أقول، أنا إذًا لست وحيدة، وهم ليسوا مجرد دمى جوفاء، هم يبدون كدمى، لكنهم ليسوا كذلك، يملكون شعورًا حتى أنهم أثروا علي، فشعرت فجأة بأن حكاية سيد مهدي لم تكن هي المرجوة، بل كانوا يفضلون لو نتتبع حكاية الرجل الذي يسكن على أطراف المدينة، ويأكل لحوم البشر، حين شعرت برغبتهم هذه، قررت أن أقضي الليل معهم، نتتبع أثره، ونحكي كل ما يشاع عنه من حكايات .

13

صار الوضع الأمثل لنا في معظم الأوقات كالتالي :

الخال يونس يرقد ممددًا فوق سريره، بينما أجلس فوق الكرسي، بجانب الشباك المغلق، عيناي تستقران مكان الخشبة المنزوعة من الشيش المغلق، تمسحان عالم فوفا، هنا تقف، تنحني، تضجع على سريرها المواجه للشباك، تخلع ملابسها، تسير بقميص نوم حريري، تجرب الوقوف بملابسها الداخلية أمام المرآة مستعرضة جسدها، الذي علمني الخال يونس كيف أصفه، النهدان وتماسكهما، وحجمهما مقارنة بقبضة يده، البطن واستواؤه، الوسط وانكماشه مقارنة برحابة أردافها، أردافها واستدارتهما، ونعومتهما، الفخذان المدملكان، السمانة، الساق، القدم وعرقوبها، الجسد وبضاضته، ولونه، الجسد والشعر المسدل من فوقه، الجسد وأوضاعه المختلفة، ارتجاجه، ارتعاشته في بعض الأوقات، الجسد والملابس التي تستره، أو التي تحاول ستره، أو التي لا تستره .

الخال يونس، وفتحة الشيش المحدودة، فتحا أمام عيني رؤية متسعة، باتساع العالم .

«موسيقى ».

قالها وهو يقضي حاجته بالحمام، بينما أقف بالمطبخ أقشر بيضتين مسلوقتين، تجاهلت الكلمة وكأنني لم أسمعه حتى أعطي نفسي وقتًا أكبر للتفكير، كرر الكلمة مرة أخرى ولم أجبه :

«متعملش فيها أطرش يابن هانم، عارف إنك سامع من أول مرة ».

قالها كعالم ببواطن الأمور، حينها ضحكت ونطقت :

«ضحكة حبيبتي هي كل الموسيقى ».

خرج الخال وقف بجانبي بعدما جفف يديه في طرف جلبابه، وكانت عادة لم يتخلص منها مع تعليقي لمنشفة على مسمار خلف باب الحمام.. ربت على كتفي، وكأنه يعلن عن استعداده، فقلت: «موسيقى »..

«الموسيقى صوت أنفاس الله ».

قالها سريعًا، بلا تفكير، اعترضت، قلت إنه يجهز الرد قبل أن يسألني، لكنه أقسم أن هذا لم يحدث، وأن الجملة جاءت هكذا مكتملة وجرت على لسانه دون أن يعرف هو نفسه كيف حدث هذا .

الخال كان مستمعًا جيدًا للإذاعة، في الصباح الباكر كانت فوفا تقوم بفتح الشبابيك، ويخرج من شباكها صوت أغاني الصباح المعتادة :

«يا حلو صبح يا حلو طل ».

«بالسلامة يا حبيبي بالسلامة ».

اعتاد الخال أن يغلق الراديو في الصباح مكتفيًا بالسماع من راديو فوفا، مع الساعة الخامسة قبل المغرب، يشرب الشاي بالنعناع مع سيجارة، ويشغل إذاعة أم كلثوم، حينها كانت فوفا تغلق الراديو، وكأنه اتفاق خفي بينهما، وكان هذا الأمر على بساطته، محل فرح وفخر للخال .

يوما ما سمعها تردد خلف محمد فوزي: «مال القمر ماله»، التي كانت تنطلق من مذياعنا، ظل طوال الليل فرحًا بهذه المناسبة، ولم يكتفِ بذلك، بل ظل يحكي لي سيرة محمد فوزي حين أمم
عبد الناصر ممتلكاته، وعينه بمرتب صغير لإدارة مصنعه الذي بناه بكده وتعبه، حتى أصابه مرض نادر مات به محسورًا .

الخال من حين لآخر يتمثل دور «غواص في بحر النغم»؛ يتناول جماليات صوت وألحان فوزي، يقول إنه الامتداد الحقيقي لسيد درويش، ولا أحد غيره، فقط أصابه ما أصابه لأنه لم ينافق، لم يغنِ هاتفًا باسم الزعيم، جعلني أشعر وكأن فوزي أحد أقاربنا، يتناول سيرته أكثر مما يتناول سيرة أمي التي أنتظر كلماته المتناثرة عنها، كل ذلك حصل لمجرد أن رددت فوفا أغنيته خلف مذياعنا .

الخال كان في الحقيقة يمتلك حسًا فنيًا عاليًا، كان من عشاق السينما، هو أول من لفت انتباهي إلى أن لكل مخرج بصمة فنية تختلف عن الآخر، حدثني أوقات صفائه عن صلاح أبوسيف، يوسف شاهين، محمد خان، فلليني، سبيلبيرج ...

كانت الروح تدب فيه حين تأتي سيرة السينما، ولكنه كان دومًا يختتم كلامه بأسى، عن آخر فيلم حضره بالسينما التي كانت مكان مول للأدوات الصحية، هكذا ينتقل من نقد الأفلام، ومن سيرة الفنانين، للتأريخ لدور العرض نفسها، فيحكي عن دور العرض التي اندثرت وما حل مكانها من معارض موبيليا، ومحلات أحذية وملابس ...

طوال الوقت حرص الخال على أن أشاهد فوفا في فترة النهار، أو ما قبل السادسة مساءً، عندما يعود زوجها، في البداية لم ألحظ ذلك، ومع تكرار الدخول المفاجئ للزوج، وارتباك الخال، ظننته في البداية يخشى شعوره بوجودنا خلف الشباك المغلق، وتجنبًا لذلك
لا نراقبها بعد قدومه، ولكن للخال دومًا رؤى لا أفهمها إلا مع الوقت وتدريجيًا، فما حدث أنه دخل حجرتي ذات يوم قبل خلودي للنوم بقليل، كانت الحيرة بادية عليه، قال إنه مؤرق، طلب أن أعمل لنا كوبين من الشاي بالنعناع، جلسنا أمام شباك حجرتي نرشفهما، ونستمع

لصوت المارة والسيارات، نور حجرتي كان مطفأ، وظلال من أعمدة الإنارة الخارجية تسقط على وجه الخال، الذي بدا لي في ذلك اليوم، لديه رغبة عارمة في الكلام والحكي، قص حكايات -كنت أحتاجها بشدة-جمعته وأمي حين كانا صغيرين، عن عمله بالفندق، قال إن الشيف المميز ليس فقط الطاهي الجيد؛ كثيرون يستطيعون عمل أكل جيد، الشيف المميز هو الذي يستطيع علاج المشاكل التي يتعرض لها، لأنه يعمل مع كميات كبيرة، ومن الصعب رميها مع أي خطأ، حكى عن أخطاء كارثية لمساعديه، وكيف كان يداويها ببساطة .

حكى عن أيام دراسته بالجامعة، عن القادمات من الريف وبعض المواقف المضحكة التي يتسبب فيها حرصهن على أن يبدون كبنات المدينة، حتى عرج بالحديث عن الغش، وعن ادعاء غير الحقيقة، وما قد يتسبب فيه ذلك من مشكلات وهنا قال، وهو يعدل من جلسته، ليواجهني تمامًا، أنه يراني :

«وبمناسبة الغش، كنت عايز أسألك ...».

لكنني قاطعته عن غير عمد، لأنني كنت أركز أثناء كلامه مع جسم غريب ظهر في السماء، يبدو من بعيد كأنه نجم، لكنه أكبر في الحجم، تصدر عنه إضاءة ساطعة، كنت قد رأيته أكثر من مرة بنافذة حجرتي في بيتنا، يوم كان أبي ما زال يتحرك، وأمي وإخوتى بجانبي، ولكنني لم أجد أحدًا يجيبنى عن ماهية هذا الشيء،

الخال حين سألته، ظل يسأل ويستفسر عما أرى بالضبط، حتى فهم وأوضح لي أنه «قمر صناعي»، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة، حينها حكى لي عن الأقمار الصناعية، فكرتها، طريقة عملها، أنواعها، حتى وصل لأقمار التجسس، لفت انتباهى الاسم، ركزت مع كلامه، حتى أصابني الرعب، من أن يكون هذا القمر، ينقل أخباري وأخبار الخال لجهة ما.. أصابتني الغيرة، حين تخيلت أنه ربما يكون جاء خصيصًا ليراقب فوفا، ولكن بالتأكيد بإمكانات أكبر تتيح له كل الرؤية.. الخال قال إن الأقمار تراقب الدول، حين سألته وما الذي يغري بمراقبة الدول، قال الدول مثل فوفا بالضبط، ما يغري بفوفا ثديها الممتلئ، ساقاها وما تحملان من أرداف مستديرة، الدول تغري بالبترول، بالماس وجبال الذهب والمعادن، الدول تغري بما تحوي أرضها من خيرات...الذهب يا يامن يجعل الناس تقتل وتكذب وتغش، ثم قال مستدركًا، دون أن أقاطعه هذه المرة :

«وبمناسبة الغش، عندك مثلًا مدام فوفا تتخيل اسمها الحقيقي ايه؟ ».

بعدما اندهشت من طبيعة السؤال، قلت «فريدة»، و«وفاء» وقلت «فوزية»، و«فتحية»، و«فاتن » ، ولم تجُد قريحتي بأكثر من ذلك، سكت، ولما تأكد من فشلي قال «فواكه ».

لم أفهم ما علاقتي أنا بالاسم الحقيقي لجارتنا، استرسل ساعتها في الحكي .

عندما كانت وزوجها ما زالا مخطوبين، كان يزورها في البيت مرات للتعارف، مرة لقراءة الفاتحة، ومرات لتناول الغداء، أو لرؤيتها، والجلوس معها والأسرة، لتجاذب أطراف الحديث حول الطقس، أو مسلسل المساء، أو الغلاء الذي يعاني منه الناس ...

فقد تعارفا وتزوجا بشكل تقليدي كما أخبرني في يوم ما أحد الجيران، الذي كانت زوجته حلقة الوصل بينهما في البداية، وكان حسين في كل زيارة، يسمعهم ينادونها «فوفا»، وفي مرات أخرى «وفاء»، فكان من الطبيعي أن يعتقد أن اسمها وفاء، ويطلقون عليها فوفا للتدليل، حتى جاء يوم زواجهما، اكتشف وهو يجلس بجوار المأذون أن اسمها فواكه، وأعلن الرجل وقتها اسميهما أثناء إتمام عقد الزواج، «حسين وفواكه»، هكذا قيل في المايكروفون وسط جمع كبير من الأهل والأصدقاء، شعر بأنه سمع ضحكات مكتومة لبعضهم، نظر إليها كانت عيناها ترمقانه، ثم تنظران في الأرض بوجه يكسوه بالأحمر تدفق الدم، لم يستطع أن يبدو أمام أهله كمخدوع، إذ كيف لم يسأل عن اسم زوجته، ولم يحب أن يبدو أمامها، وكأن من الممكن أن يضحي بها لمجرد اسم، قد لا تستخدمه بعد ذلك إلا فيما ندر ...

أكمل ليلته بشكل طبيعي، فبدا أمام أهله، وكأنه كان يعلم بموضوع فواكه، وبدا أمامها وكأن الأمر لم يعنيه، مرت الليلة بسلام، ولم ينبس بكلمة تجاه الموضوع، حتى جمعتهما غرفة واحدة، نفس الغرفة التي شهدت ليلتهما الأولى، التي تطل على غرفة الخال الجانبية، حينها لم يكن فقد نظره كلية، كان ما زال يرى الناس أشباحًا، وقد يرى ملامحك إذا صار وجهك تمامًا بين كفيه، قريبًا لهذا الحد ..

كان الخال خلف الشباك، بجوار الفتحة التي جهزها في صباح نفس اليوم ممنيًا نفسه برؤية أي شيء، ولما فشل جلس بركبتيه على الكرسي الخشبي، واضعًا أذنه على فتحة الشيش، محاولًا الاستعاضة عن الرؤية بالسمع .

في ليلة الزواج الأولى حاول حسين أن يبدو هادئًا، سألها عن اسمها :

«دا أنا نفسي نسيت موضوع فواكه ده.. زي ما أنت شفت كل الناس بتناديني وفاء وتدلعني فوفا ».

كانت صينية الطعام موضوعة ومغطاة على ترابيزة بالقرب من السرير، وكان الجو حارًا، مصهدًا كطبيعة ليالي أغسطس، شباكهما كان مفتوحًا، والقمر يطل عليهما بعدما خلعا ملابسهما، قفل حسين الستارة بعدما قالت له إنها قلقة :

«يا بنتي متخافيش، محدش قصادنا غير بيت فاضي، مفهوش إلا الشيخ يونس الضرير ».

«بس برضه الاحتياط واجب ».

أسف الخال عندما سمع توصيفه بأنه ضرير، بالرغم من أنه كان حينها ما زال يرى طشاشًا .

صوت الستارة، وهي تغلق، أزعجه وكأنها التي حجبت عنه الرؤية، كان صوتهما يبدو كفحيح، معظم الكلمات لا تبين بوضوح، الخال فهم ما يدور بالوقت والتراكم .

بعدما فضها، وكان لشهقتها أنين مكتوم، استمتعا معًا بدش ماء منعش، سمع خريره الخال، حتى أن منظر شعرهما المبلل، ملتصق بخياله كأنه رأى.. عادا إلى حجرتهما، أتى حسين بطبق، ظل يقشر فيه الفاكهة المتوفرة، ويقطعها بالسكين بطريقة طولية :

«قولتيلي اسمك فواكه؟ طيب فواكه فواكه ».

أجلسها على طرف السرير، بينما بقي على الأرض، مستندًا على ركبتيه وبجانبه طبق الفاكهة، احتضنها دافسًا رأسه بين فخذيها، دفعها بعد قليل للخلف، نامت على السرير بجذعها، وساقاها مدليتان لأسفل، باعد بينهما، قبّل فخذيها ببطء، تناول إصبع موز مقشورا من النوع المستورد الفاخر، مسحه فيها، شعرت بقشعريرة لذيذة، لم تكن تفهم تمامًا في البداية ما يحدث، حشره

تدريجيًا، وعند منتصفه توقف، مال برأسه بين ساقيها، نزل بفمه أكل ما ظهر من إصبع الموز وظل يسحبه تدريجيًا ويلتهمه مستمتعًا :

«إيه ده.. فواكه بالعسل !».

كان الخال في ذلك الوقت يستمع إلى تكرار كلمة موز، ولكنه لم يكن يعي ما يحدث، ثم فجأة :

«لأ تفاح لأ، والنبي يا حسين تفاح لأ ».

ظل الخال حينها طوال الليل ساهرًا، يشرب الشاي بالنعناع ويتساءل، لماذا تخاف فوفا التفاح، ظل حتى الصباح محاولًا الفهم، لكنه التراكم، كلمة في اليوم، وأخرى في الغد حتى فهم الحكاية، بعدما جمعته سهرات مع أحد جلساء حسين المخلصين، حكى للخال ما لم يصدقه في البداية، لكنه صار يركب الكلمة بجوار الأخرى، والمعلومة تلو المعلومة، حتى صار كمن يرى .

14

ظللت طوال الوقت بين الشك واليقين، لم أستطع الإمساك بابتسامة واضحة، أو بأي شعور مما أحسه يرتسم على وجوههم، وفي نفس الوقت ليس لدي اليقين للقول بأن الأمر مجرد تهيؤات أو تمنٍ، تركت الموضوع، لم أعد أهتم به في ظل اهتمامي بأمور أخرى كثيرة، من تجهيز الوجبات، لتلقي الطلبات وتوصيلها، للتفكير في عائلتي
- التي تشتتت ما بين التحول لدمى لسفر واغتراب - طوال الوقت، كما أفكر في حل للمتحولين، أفكر أيضًا في يامن الذي لم أعد أعلم عنه شيئًا، منذ زيارتي الأخيرة، حين مرت تسعة أشهر على تحول فريدة؛ كنت أخشى أن يكون الدور دوره أو دوري، كان لا بد أن أكون معه في هذا التوقيت، بقيت ليومين حتى اطمأن قلبي، عدت مسرعة لأبيه وإخوته، وبداخلى فرح أنني ويامن ربما لن يصيبنا الدور .

انفصلت عن كل ما سبق، عدت مرة أخرى أنشغل بأمر شعورهم، بعدما كنت مع مرزوق في الحجرة، بالطبع كان واقفًا على نفس وضعه، وكنت أجلس على الكرسي الخشبي الذي وضعته بجانبه، لأجلس عليه يوميًا أحكي ما تيسر من تفاصيل حياتي، أو ما واجهني في يومي من متاعب ...

في ذلك اليوم، لم أستطع الحكي، كنت مجهدة، وكان كل ما في يومي مشاحنات، لم يكن لدي طاقة لإعادة حكي كل هذه الترهات، قررت حينها أن أنتقي كتابًا من المكتبة، وأن أقرأ لهم استعاضة عما أحكيه، وقعت عيني على ألف ليلة وليلة، سحبت جزءًا منها بشكل عشوائي، خاصة وأنني منذ عدة أيام، تخيلت نفسي - وأنا جالسة للحكي بجوار مرزوق - كشهرزاد، فهى كانت تحكي لتنقذ حياتها، لكنني أحكي من أجل إنقاذ حياة أقرب الناس لي، حينها قلت في نفسي، إن موقفها أيسر من موقفي بكثير، ليت الأمر توقف عند حياتي، لو حدث هذا لهان الأمر، ولهانت حياتي .

فتحت الكتاب، وبالصدفة جاءت الصفحات على «حكاية الحمّال مع البنات»، لم أكن قرأتها من قبل، شرعت في القراءة، اندمجت مع الحمّال ومع البنات اللائي لاطفهن، حين نطقت ما قاله الحمال: «اسمه البغل الجسور الذي يرعى حبق الجسور ويلعق السمسم المقشور ويبيت في خان أبي منصور»، شعرت بابتسامة مرزوق، لمحت شفتيه وقد انفرجتا، ظللت أكذّب نفسي، أكملت الحكاية، عندما تكون عيني على الصفحات ويأتي موقف يستدعي الضحك، ألمح ابتسامته بطرف عيني، لكنني عندما أرفع رأسي وألتفت إليه مدققة في ملامحه، أراه على وضعه الثابت .

تركت الكتاب، قررت إنهاء الموقف، اقتربت من مرزوق، احتضنته بحرص، ظللت أقبل رقبته الصلبة الباردة، اقتربت بحرارة شفتيّ من منطقة حلمته، وقفت، دفست نهديّ في صدره، اقتربت بجسدي منه تمامًا، جعلته ملتصقًا بي، همست في أذنه بما كان يثيره، انتظرت أن أشعر به يصحو من نومه تدريجيًا لينهض كما كان يفعل في الماضي، لكن ذلك لم يحدث، ظل ثابتًا ببرودة ملمسه، عندها تأكد لي أن الأمر مجرد تهيؤات، عندما هممت بالانصراف ومغادرة الغرفة، كنت هناك لدى الباب، لمحته منتصبًا، دققت النظر مرة أخرى، وكما يحدث في كل مرة، تركت الغرفة بعد أن عدت لحيرتي، ولم أصل لإجابة واضحة، هل يشعرون بي وبما أحكي، هل بالفعل يتفاعلون مع كلماتي، لم أمتلك القدرة على الإجابة، وبقيت كما أنا متأرجحة بين الشك واليقين .

15

«الجنون ».

قالها الخال بعدما رشف من كوب الشاي رشفة لها صوت، ونظر لي معلنًا التحدي كعادته، كانت لعبتنا قد تطورت مع الزمن ومع تكرار لعبها بشكل شبه يومي، لم نعد نكتفي بالتعريفات البسيطة، صمتُ مفكرًا قليلًا.. صار الأمر بالنسبة لي كرياضة عقلية اعتدتها، كطريق اعتدت السير عليه جيئة وذهابًا، حتى صرت أصل بأنسب الطرق وأقل مجهود، وجدتني أقول :

«لقد وقفت ذات يوم على حافة الجنون، كان الجنون مبنى كبيرًا مرتفعًا كناطحة سحاب، كنت فوق سطحه غير المسور، اقتربت من الحافة بلا أي حسابات، الناس بأسفل يتعجبون من إقدامي، كلما اقتربتُ تعلقتْ عيونهم بي، وأنا على الحافة تمامًا كانت صرخاتهم هيستيرية كلما قمت بعمل إحدى الحركات بغرض استعراض قدراتي وثقتي في نفسي، ارتجفت قلوبهم وازداد صياحهم، الذي كان يصلني بأعلى فيزيد من حماستي، ويزيد لدي من شهوة المغامرة .

حين انزلقت قدمي، ظللت أسقط ليومين، وظل الناس ليومين فاغري أفواههم؛ في انتظار ارتطام جسدي الصغير بالأرض، لكن الجنون كان كطفل يلهو؛ قبل

ارتطامي بثوان أُظهر نطاطة كبيرة مليئة بكرات ملونة محشوة بالفايبر الهش، ظل جسدي ليومين آخرين يتأرجح عليها صعودًا وهبوطًا، وحين انتهيت، وخرجت واقفًا على قدمي، كان صياح الناس كالموج الهادر ».

ضحك الخال وبدا مبتهجًا منتصرًا وهو يردد :

«موج هادر، اه يابن هانم، دا أنت محدش هيعرف يكلمك ».

ضحكنا كثيرًا، ثم دخل بي مرحلة جديدة، فما إن حكى الخال موضوع الفواكه التي تقطع لشرائح، والتي تبدو كأنها تستخدم للانتقام، حتى صار يسمح لي بمراقبة فوفا ليلًا، اكتشفت بدوري أن المراقبة ليلًا تختلف تمامًا عن مراقبة النهار، في النهار كنت فقط أرى جسدها وهو يترجرج داخل ملابس البيت، أو وهو يبان رغمًا عنها كما حدث عندما انزلق ثديها الأيسر من طوق قميصها، وهى منهمكة في ترتيب الشقة، ساعتها أدخلته باسمة :

«ادخل انت دلوقت ملكش دعوة ».

كانت فوفا مرحة وبشوشة نهارًا، تستمع للأغاني، تردد معها بعض المقاطع، وتتراقص على ألحانها إذا حركت شيئًا بداخلها، ولكن في الليل الوضع يختلف، وكما علمني الخال كيف أصف جسدها وهو ثابت علمني كيف أصفه متحركًا، كما علمني كيف أصف جسدها مفردًا،

علمني كيف أصفه مثنى، وهو ملتصق بجسد آخر، حدثني عن أسرار علاقة الجسد بالجسد، عرفت أوضاع الجماع وأسماءها الدارجة، عرفت الشبق، هزة الجماع ...

عرفت كيف أصف نظرة عينيها، وانفراجة شفتيها لحظة ولوجها، كيف تتأوه، كيف تعض شفتيها، وتتشبث أصابعها بظهره .

شاهدت حسين يبحث بلسانه عما تبقى من فاكهة، يلتقطها، يأكلها بعسلها كما كان يقول :

«عسل يا فوفا.. عسل ».

كانت تنتشي، وكان ينتشي، ثم يعتليها، ويلجها بعنف .

كنت أحكي وكان الخال ممددًا فوق سريره، وجهه لأعلى كطبق استقبال، ساقاه منثنيتان، يده اليمنى في سيالة جلبابه المفتوحة، مما يتيح له عبورها وملامسة جسده من خلالها، كنت أحكي وكان الخال يتحرك ببطء، محاولًا عدم لفت انتباهي، كان يتأوه، ويزم شفتيه، يبتلع ريقه، وكأنه يكتم آهة تصدر من داخله لداخله ...

ذات مرة قفز لذهني تصور، هل تحولت أنا أيضًا لدمية؟ دمية تصف ما ترى حين يطلب منها ذلك، دمية تأكل وتمشي وتنام، صرت أتحسس جسدي متشككًا.. هل

تحولت أمي أيضًا لدمية تقلق وتبكي وتروي الحكايات، ألا توجد دمى تتحرك وتأكل وتنمو! أنا رأيت دمى تفعل كل ذلك ...

حين تأتي أمي لزيارتي كل عدة أشهر، صرت أدقق النظر في ملامحها، وهي تتحدث بينما بالها مشغول، وهي تحاول جاهدة الضحك على نكات بائسة يطلقها الخال، وهي تدس في يدي مئات الجنيهات، ناطقة بكلمات لم تتغير :

«خليهم معاك يمكن تحتاج لحاجة ».

كأنها صارت دمية مبرمجة على كلمات وأفعال محددة، هل الخال أيضًا صار دمية، دمية عمياء محدودة الحركة والتعاملات والاهتمامات .

منذ ذلك اليوم لم أعد أنشغل كثيرًا لأمر أبي وإخوتي، صرت أنظر للمدرسين وللجيران وللناس في الشوارع؛ محاولًا اكتشاف من تحول ومن لم يتحول لدمية بعد .

أدقق النظر في ملامح الخال الممدد أمامي، يلقي علي هامسًا بالاستفسارات، محاولًا استقبال إجابات ترضيه، ظل الأمر كذلك، وفي كل مرة تستقبل فوفا الفواكه المختلفة مرغمة، كانت في البدء ترفض، وكان حسين يمسكها بعنف حتى تستجيب، وتنسجم تدريجيًا مع ما يحدث، حتى ينهي عرض الفواكه لتستقبل تشنجاته،

وقسوته التي تصل إلى حد الضرب، أو العض القاسي الذي تسيل معه دماؤها، كان يبدو في كل معاشرة وكأنه معها لأول مرة، نفس الإثارة، ونفس العنف والعنفوان، صارت الأمور بهذا الشكل، حتى جاءت ليلة، سمعناها تصرخ وكأنها طعنت بسكين، استيقظنا أنا والخال، واستيقظ بعض الجيران .

كانت تصرخ، تتألم، تمسك بأسفل بطنها وكأنها تتمزق، كنت أراقبهما من نفس الفتحة بالشباك، حسين بدا حائرًا خائفًا، وكأنه
لا يعرف ماذا يفعل، الجارات دققن بابها، تساءلن بعدما ترك لهن حسين الغرفة، أسرت لإحداهن بكلمات، وضعت الست كفيها فوق وجنتيها مأخوذة، همست للأخريات، بما جعل الدهشة تبدو عليهن، في النهاية كان لا بد أن يتحركن، ساعدنها في ارتداء عباءتها، أوقف حسين تاكسيًا أمام باب المنزل، مشت ببطء، حتى ركبت وهي تتألم، اختفى التاكسي بهم، وفي المساء كان كل الشارع يعرف بما حدث لمدام فوفا .

«الجنون ».

حين رددت نفس الكلمة للخال، أخذ دقيقتين رافعًا رأسه للسقف ثم وقف، محاولًا التعبير عما يقول بيديه وتعبيرات وجهه، بدا لي كممثل بارع، وهو يقول :

«أما أنا فقد رأيت الجنون رجلًا عجوزًا يميل للتصابي، يرمي البنات الصغيرة في الشارع بكلمات بذيئة، ويضحك من ارتباكهن، يتحدث في الجنس مع المراهقين في الحدائق العامة أثناء هروبهم من المدارس، يفرح حين يشعر أنه صار كمرجع لهم، في حين كان طوال عمره من ذوي الخبرات القليلة في هذا الشأن، الرجل يدعي المرض، وحين يلتف من حوله الناس قلقين، يسخر منهم جميعًا ويتقافز كقرد عجوز، يصرخ في الليل كأنه شاهد لصًا فوق سور حديقة أحد الجيران، وحين يستيقظ الجميع يكتشفون أنها مجرد خدعة من العجوز، في آخر أيامه كان الجميع قد ضج به وبأفعاله، كل ذلك لم يهمه، لكنه ذبل فعلًا بعدما صار لا يستجيب لأفعاله أحد، حتى أنه حين مات تركه الناس يومًا كاملًا فوق سريره ظنًا منهم أنها إحدى دعاباته، ولكن بعدما فقدوه ومع مرور الوقت شعر الجميع أنه ترك فراغًا كبيرًا، وأنهم يفتقدون بالفعل حركاته الطفولية البريئة ».

16

أثق تمامًا أنني لم أكن نائمة، فعندما تلامس رأسي الوسادة، وحتى يأتيني النوم، تعودت أن أقضي هذا الوقت في تخيل ما أتمناه وكأنه تحقق، حين كنت طالبة كنت أراني ناجحة، وأرى نتيجتي وقد ظهرت، فرحتي بالتفوق، فرحة أمي وأبي، أرى الهدايا واستمتاعي بالفسحة مع صديقاتي كمكافأة نجاح، في مراهقتي كنت أرى يوم زواجي، الفستان الأبيض، الكوشة، الأغاني، أراني وأنا أرقص، وأنا أقوم بتقطيع التورتة المكونة من خمسة أدوار، الآن صرت أرى مرزوق والأولاد وقد عادوا لسيرتهم الأولى، أرى أولادي معي أمام باب السينما ننتظر مرزوق حتى يحجز التذاكر، ونحن نأكل الآيس كريم، ونتمشى على شاطئ بحر مدينتنا، أراهم ونحن ذاهبون معًا لتناول العشاء في مكاننا البكر المليء بالنخيل على الشاطئ، لكنني اليوم لم أرهم، ولم أر أيا من أحلامي، وجدت سيدة عجوزا شبه كسيحة، تجلس على فراش موضوع على الأرض مباشرة، تستند بظهرها إلى جدار، تشير بيديها الواهنتين إليّ أن أقترب.. كان شعرها أبيض مهوشا، عيناها جاحظتين، لكنها كانت تبدو لي كامرأة طيبة، اقتربتُ فظلت تهمس لي بكلام لم أتبينه، كانت في بيت أعرفه تمامًا، أمسكتْ بكتفي نظرتْ في عيني، وجدتني أرقد بجانبها، أضع رأسي على فخذها، أفرد جسدي على

الأرض، تداعب شعري، كانت يدها دافئة، وكأنها تمس قلبي مباشرة .

أنهض واثقة من أنني لم أكن نائمة، وأنه لم يكن حلمًا، شربت كوب ماء، كنت أظنني في منتصف الليل، لكني تذكرت أني فقط دخلت لأرتاح قليلًا قبل الغروب، كانت دومًا جدتي تحذرني من النوم في مثل ذلك التوقيت، لا أعرف لماذا، كان التحذير لشيء له علاقة بالجان، ولم أكن أهتم بمعرفة مثل هذه الحكايات ...

فتحت الشباك، كانت الشمس قد اختفت، والليل يبدو قادمًا من بعيد .

ركبت السيارة، وأنا أتذكر تمامًا ملامح السيدة العجوز، عندما ركزت قليلًا وجدتني أعرف بيتها، وأحفظ تفاصيله، وتفاصيل الشوارع المؤدية إليه .

ذهبت على هدى الخريطة المرسومة في خيالي، كان البيت يقع وسط عمارات ضخمة، يبدو وكأنه أرض فضاء محاطة بسور من الطوب اللبن، بالكاد يحجب الرؤية عن رجل متوسط الطول، له باب خشبي قديم موارب، طرقته ولم يرد أحد، لكنه أصدر صريرًا، ألقيت السلام ودخلت، كانت المساحة واسعة، على الجانبين أشجار عالية، في الواجهة حجرة مسقوفة بالخوص، بجانبها ما يبدو كدورة مياه صغيرة، أمام الحجرة فرش، ترقد عليه السيدة العجوز، كانت تغط في النوم، ومع كل

نفس يدخل أو يخرج من صدرها، يصدر ثلاثة أو أربعة أصوات، صفير، شخللة، صوت مرور هواء، تأوه ...

ناديت عليها، لم ترد، كانت مستغرقة في النوم تمامًا، اقتربتُ، كان باب الحجرة من خلفها مفتوحًا، الحجرة خاوية تمامًا، إلا من فرش على الأرض يشبه الذي ترقد عليه بالخارج، ما أن اقتربت، وقررت تأمل ملامحها، التي كانت تبدو لي قديمة، وكأنها أتت من زمن غير زماننا، حتى وجدتها تفتح عينيها ببطء، وتنظر إليّ مدققة :

«ياه.. هانم، بسرعة كده يا حبيبتي.. والله كتر خيرك ».

قالتها لتزداد حيرتي، ولأبقى لفترة -لم أتبين مقدارها- غير قادرة على الحركة أو الرد، فقط دارت في ذهني لقطات سريعة من حياتي
بلا ترتيب، وبلا معرفة علاقتها بهذه اللقطات، وبلا وجود لها في أي منها، فقط مجرد صور تتوارد، ولم أستطع إيجاد أي رابط بينها .

17

في ذلك اليوم كان كل شيء يسير بشكل طبيعي، أتى حسين بطبق الفاكهة المقشورة، المقطعة بشكل تبدو معه جاهزة، أسقط عن كتفها حمالتي قميصها، سقط بينهما، وهما واقفان في وسط الغرفة، صارت عارية تمامًا، أتى بشرائح باباز، دعك جسدها كله حتى صارت برتقالية اللون، ظل يلحس، مر بلسانه على كل جسدها ...

«الباباز أخد طعم جسمك.. كأني باكلك يا فوفا ».

قالها وظل يلحس بنهم، وعندما انتهى، وصار جسدها نظيفًا لامعًا قال الخال إنه متعب، وإنه لن يكون هناك جديد، وأن ابن المحظوظة سوف يركب الفرس، ويجوب بها كل الأراضي كما يفعل دومًا، دخلتُ كما أوصاني حتى أجهز كوبين من الشاي مع سندوتشات الجبنة لزوم العشاء، ولكنني عدت بعد قليل على صوت فوفا الذي شق ظلام الليل، لم نكن نفهم شيئًا .

هذه المرة حكى لي الخال؛ بعد عودته من المقهى، عرف أنه فعل كما يفعل، أكل ما ظهر من أصبع الموز، لكنه وسط النشوة لم يلحظ ما انزلق لداخلها، حينها شعرت فوفا ونبهته، لكنه لم يلحظ ما تقول، وربما لاحظ ولم يهتم.. شعرت بالألم يشتد وهو معها، صرخت كمن

تطعن بسكين بأسفل بطنها، وبعدما كان موضوع الفاكهة سرها مع حسين كما تتخيل، ولا يعلم عنه أحد شيئًا، سوى أنا والخال وبعض خلصاء حسين كما نتخيل، صار الأمر حديث الحارة كلها، بعدما نزلت ليلًا متألمة، وفي المستشفى قام الطبيب بعمل سونار، اكتشف التهابات وتقيحات كان لا بد أن تؤلمها، توقع تسرب قطع لداخلها منذ زمن في مرات سابقة !

عادت للحارة منكسرة، شعرت بإهانة لم تشعر بها من قبل، سمعت من الجيران وهي تدخل بيتها ما فهمت منه، أنهم تخيلوها تفعل ذلك بنفسها، دون علم زوجها، وما زاد من وطأة الأمر عليها، أنها ما أن دخلت شقتها حتى عاجلها حسين بأسف بدا لها مفتعلًا، وهو يقول :

«معلش يا فوفا، المرة الجاية هخلي بالي ».

ساعتها نظرت إليه باحتقار، ولم تجب، لكن يبدو أنها كانت قد اتخذت القرار .

لملمت ملابسها سريعًا، بعدما تأكدت أنه يغط في النوم، فتحت باب الشقة بحرص، خرجت وقبل أن تغلقه بنفس الحرص، نظرت خلفها للداخل، بصقت بغِلّ وقرف على كل شيء، على الأثاث، والأيام الماضية، على حسين وقسوته، والفضيحة التي تسبب فيها، نزلت السلم، وعند الباب الخارجي سمعته يصرخ مردّدًا اسمها مكلومًا، كمن فقد كل ما يملك في لحظة مباغتة، شعرت أنها لأول

مرة تنتصر عليه، أنها بفعلتها هذه ستنتقم من كل أفعاله السابقة، تخيلته يستيقظ ليجدها وقد حشرت فاكهتها في شرجه، وأن صرخته التي سمعتها مجلجلة كانت حين اكتشف فض عذريته على يديها، راقت لها الفكرة، وصارت فيما بعد تتخيل أنها فعلتها معه، وأنها انتقمت بالفعل منه، وكان هذا التفكير، هو الوحيد الذي يشعرها بأنها تتقبل حياتها بعض الشيء .

18

عندما نظرتُ في عينيها الحمراوين الجاحظتين، لم أخف منهما، لم أشعر فيهما إلا بالطيبة، لم أشعر معها إلا برغبة واحدة، أن أرقد بجانبها، وأضع رأسي على فخذها، أستمع لصوتها وحكاياتها، ربما شعرتْ برغبتي هذه، وجدتها فجأة تمد يديها لي -لاحظتُ ريشًا صغيرًا يغطيهما، يغطى الذراعين، وما بدا من ساقيها، يبدو الريش وكأنه يكسو كل جسدها، لم أهتم بذلك كثيرًا- أشارت أن أقترب واقتربت، وأشارت أن أجلس بجانبها، وجلست، وجدتني أضع رأسي على فخذها، ووجدتها تتحسس شعري، تتخلله بأصابعها النحيفة برقة ودفء، بالضبط كما كانت في الرؤية التي أرشدتني لوجودها، حكت لي حكايات كثيرة، في ذلك اليوم لم أعد للبيت، ظللت معها حتى الصباح، لم أفكر في الدمى التي تنتظر حكاياتي حتى لا يصيبها التشقق، ولا في يامن الذي أجبرته على ترك البيت وكل المدينة إنقاذًا لحياته، انسقت فقط خلف رغبتي في البقاء والاستماع لها .

تخيلتها وهي تزحف في كل يوم حتى تصل لفراشها بالداخل، تقضي عليه الليل، وفي الصباح تزحف للفراش الموجود أمام حجرتها حتى تقضي نهارها، لكنها اليوم بقيت معي في الهواء الطلق تحكي حكاياتها التي كانت كلها حزينة، كل حكاياتها عن آلامها، وشعورها بالوحدة

مع وجود كل الناس من حولها، أناس كثيرون يأتون لزيارتها، يحققون لها كل ما تطلب، لكنها ظلت تشعر داخلها بالوحدة، تعرف أنها وحيدة، وأنها عند لحظة معينة ستحتاج لأحد من هؤلاء لكنها لن تجده، ولا أحد سينصرها .

الليل لم يدم طويلًا في هذا اليوم، جاء الصباح أسرع من كل الصباحات السابقة؛ فسريعًا شقشق ضوء الفجر، وسريعًا وجدت آلاف الطيور تحوم حول رأسها، غربان ويمام وعصافير وحمائم، يحومون بأعلى، ويفترش بعضهم أرض البيت، بدت وكأنها تستمع لهم، وكأنها تبادلهم ويبادلونها إشارات لا يفهمها سواهم .

حكت لي عن مرزوق، الذي كان يأتيها كل يوم بوجبة من صنع يديّ :

«أكلت أكلك قبل ما أشوفك يا هانم ».

تبسمتُ، ودعوتُ لها بالهناء والشفاء، قالت إن مرزوق كان يأتيها مع الوجبة بزجاجة مياه، وبكيس به عشرون رغيفًا من الخبز البلدي .

كان يبدو كرجل طيب، يعطيها الطعام والخبز والماء، يرتب لها فراشها كل يوم، يقبّل يدها، يسألها إن كانت تريد شيئًا آخر، ثم يسألها الدعاء، ويرحل، ليأتي في اليوم التالي قبل الغروب .

كان بالفعل يبدو كرجل طيب، لكنها قالت إنها أبدًا لم تشعر بأنه الرجل الطيب، كانت تدعو له، وكانت تتقبل عطاياه، لكنها كانت طوال الوقت تتوجس منه خيفة .

تأكل وجبته بعد أن تتشممها وتتذوقها بحرص، تفعل نفس الشيء مع الماء، أما العشرون رغيفًا، فكانت تسهر طوال الليل تقطعها بأظافرها، لقطع صغيرة، قد تقل عن حجم حبة القمح تصنع منها هرمًا صغيرًا بجانبها، ومع بزوغ شمس النهار كانت تبدرها في الفناء من حولها، لتأتيها الطيور مع كل صباح، تحوم من حولها، وكأنها تلقي عليها تحية الصباح، تملأ البيت ضجيجًا وبهجة، بصوت الزقزقة وصوت رفيف الأجنحة، تهبط، تلتقط حبيبات الخبز لها ولصغارها، كانت كل الطيور تدعو لها ولمرزوق، ومع ذلك لم تشعر أبدًا معه بالطيبة .

عندما سألتها وما هي العلامات التي يجب أن تتوفر في الشخص حتى نصفه بالطيبة؟ لم ترد، فقط نظرت لي، أطالت النظر حتى ظننتها لن تحوّل نظرها عني أبدًا، وحين نسيت فيما كنا نتحدث، وحين استسلمت لنظراتها تمامًا وصارت أمرًا طبيعيًا، أشاحت بنظرها بعيدًا، وظلت تنظر هناك في الفراغ البعيد، ثم أشارت ناحية القلب دون أن تنطق بكلمة .

19

بالرغم من أن الخال ظل يفرك طوال الليل، ربما جافاه النوم، بعدما علم باختفاء فوفا، وبهجرها لبيت زوجها، وبالرغم من تسببه في قلقي أكثر من مرة، لكنني استطعت الاستيقاظ في ميعادي، لم يكن اليوم يختلف عن أي يوم آخر، جهزت حقيبتي، سخنت له صفيحة الماء، وضعتها بالحمام، أبلغته بذلك، جهزت الإفطار، كانت فوفا تهف على بالي طوال الوقت، وكان صوت مذياعها، وهو يغني «بالسلامة يا حبيبي بالسلامة»، يرن في أذني بالرغم من أنه فعليًا كان مغلقًا، وكأن أذني تجتر موسيقاها، كنت أتساءل كيف سأقضي الوقت مع الخال وحيدين من دونها .

تخيلتها وقد عادت لبيت أبيها، دخلتْ حجرتها القديمة، فتحتْ شباكها المليء بالأتربة، وبقيتْ كما اعتادت -في بيت زوجها-بقميصها الخفيف، تستريح من عناء الطريق، كنت أرى ابن الجيران ذا الثلاث عشرة سنة، والذي يمثلني في السن حينها، يختبئ خلف ستارة حجرته، يراقبها وهى ممددة على سريرها تتقلب بحرية، بينما يقف هو كاتمًا أنفاسه منتظرًا انفراجة من ساقيها، حتى يرى مشتاقًا سرها الأعظم، شعرت بغيرة وكأن فوفا تخصني أنا، حينها أدركت أن الاعتياد على الشيء، ربما يعطينا الحق في امتلاكه دون أن ندري .

الخال لم يستيقظ لدخول الحمام أو لتناول إفطاره كالعادة، بالتأكيد جاءت على باله، لعله رأى شابًا بعينين سليمتين يصطادها من الطريق، يتخذ دور الشهم، حتمًا سيقنعها بأن تذهب معه لترتاح قليلًا، وهي في مثل الظروف التي تمر بها سوف تستجيب، بالتأكيد كان لديه من الخبرة حتى يؤثر عليها بسهولة، سيجعلها فجأة عارية بين يديه،
لا بد ستعجبها المضاجعة الطبيعية، بلا شرائح فاكهة وبلا عنف، سيشعر الخال بالحنق والغيرة من ذلك اللئيم؛ استطاع أن يستمتع بجسدها طوال الليل، وهو لا يعرفها من قبل، لم يرقبها، أو يشتهيها لسنوات خلت، هبطت عليه بجسدها اللدن، كجائزة مفاجئة من السماء .

حملت حقيبتي المليئة بالكتب والكراسات، لم أتناول إفطاري، لم آخذ سندوتشاتي بعدما جهزتها، وضعتها داخل الكيس البلاستيكي، ثم شعرت فجأة بالزهد فيها .

خرجت بعدما أغلقت الباب برفق، كما عودني الخال عندما يكون نائمًا، عودني أن أعمل في الصباح والمساء كل شيء برفق، يقول إن نومه عزيز، نزلت على الدرج، لاحظت أنني لم أعد أشعر بصريره واهتزازاته تحت قدمي، تذكرت أمي حين قالت ذات يوم إنه يفعل ذلك فقط مع الغرباء، أنا هكذا لم أعد غريبًا ثلاث سنوات مرت في هذا البيت، كان لا بد أن تكون كافية ليعتادني

الدرج كما اعتدته، وكما اعتدت الأتربة والحشرات، وفوفا، التي صارت تملأ كل كياني .

حين هممت بالخروج من باب البيت، سمعت فجأة صوتًا يناديني هامسًا :

«يامن.. يامن ».

نظرت خلفي، وجدتها تضع سبابتها فوق شفتيها، مشيرة إليّ أن أصمت، ثم أشارت أن أتقدم .

كانت مقرفصة تحت بير السلم، خيوط العنكبوت من فوقها، يلتصق بعضها بشعرها، لم أتخيل أنه من الممكن لإنسان أن يبيت في هذا المكان، لكنها فعلتها، بالتأكيد لم تكن تعلم شيئًا عن العقارب والسحالي التي تعتبر البيت ملكًا لها، لكنها بدت أمامي سليمة، تتحدث وتتحرك بلا ألم، بقيت دون لدغة واحدة حتى الصباح، كانت العقارب بها رحيمة، ربما قيل دعوها وشأنها، كفاها ما بها من هم، وربما لم تعرف العقارب ماذا تفعل معها، بالتأكيد لفوفا جسد غير كل الأجساد المسجلة في ذاكرتهم، ربما لذلك شعروا بأنهم يواجهون مادة لم يتعرضوا لها من قبل، ربما شعروا تجاهها بالهيبة .

كانت فوفا مجهدة، طلبت مني نقودًا حتى ترحل، لأنها نسيت أن تأخذ نقودًا معها، كما أنها خشيت من أن يلحق بها حسين لو توجهت للمحطة مباشرة، خاصة أنها

سمعت صوته يناديها، ثم سمعت من مكانها هذا صوته بعد قليل وهو ذاهب ليلحق بها، لكنه عاد وحيدًا منكسرًا خائب الأمل، عاد دون أن يتخيل أنها على بُعد خطوات منه، كيف لم يشعر برائحتها، بأنفاسها، كيف لم تصله طاقة جسدها، كل هذه تساؤلات لم تأت في بالي وقتها، فقط كنت فرحًا لوجودها معي، فرحًا لأنها لم ترحل، لكنها سريعًا قالت إنها ستعود لأمها، ولزوج أمها دون رغبة منها، لأنها لم تعد تحتمل ضرب حسين وإهانته لها، بالطبع كنت أعلم أن المسألة ليست مسألة ضرب وإهانة فقط، وهنا وجدتني دون تفكير، أرفض فكرة رحيلها وهى في مثل هذه الحالة، دعوتها للصعود معي، وحين قالت الخال والجيران وكلام الناس، قلت إن في غرفتي متسع، ولن يعرف الخال ولن يعرف الجيران.. لا أعرف كيف كان ردي بهذه السرعة، كيف لم أطاوعها على فعلتها وأوجدت لها البديل، لعلها لعبة الخال الذهنية مع الكلمات هي السبب، لعلي تخيلتها نطقت بكلمة «هروب»، وكان عليّ حينها أن أقول شيئًا، فقلت لها: ابقي .

20

ظل بالي مشغولًا، لماذا ترى العجوز مرزوق ليس بطيب، وهو يأتيها يوميًا بالماء والطعام لها وللطيور، وهو يخدمها، ويرتب لها فرشتها ويقبّل يدها عند كل زيارة .

استيقظت في الصباح، كنت قد قضيت الليل معها ومع حكاياتها عن الحزن والوحدة، بالرغم من أن حكاياتها لم تكن سعيدة، لكنها كانت لديها القدرة على أن تبعث بداخلي راحة، وشعورا بالطمأنينة .

لكن ما إن استيقظت على صوت رفرفة أجنحة الطيور، واكتشفت أن الصباح قد أتى، تذكرت مرزوق والأولاد، تذكرت احتياجهم لي، تركتها سريعًا على وعد باللقاء القريب .

في المنزل كان كل شيء كما هو، مرزوق في حجرتنا واقفًا بالقرب من الدولاب، فريدة في الصالة راقدة على بطنها برجل مفرودة وأخرى منثنية لأعلى، مازن في حجرته راقدًا على ظهره فوق سريره، واضعًا ساقًا فوق أخرى، وكأنه يتأمل الفراغ، عيونهم كانت من نفس مادة أجسادهم، تبدو كمطاط منتفخ، لكن تشققات كانت قد ظهرت على سطح أجسادهم، وكأنها شعيرات خفيفة، لم يتحملوا ليلة واحدة
بلا حكايات، جلست بجانبهم واحدًا تلو الآخر، حكيت لهم عما جرى مع السيدة العجوز، عن الطيبة التي تطل من عينيها الجاحظتين، عن الطيور التي تأتيها مرفرفة

تأكل ما بدرت لها من فتات الخبز، كنت أحكي وكانت أجسادهم تلتئم حتى اختفت كل التشققات .

في الفترة الأخيرة بدأت أشعر بالإرهاق من الحكي، لم تعد لدي القدرة على إعادة كل حكاية لثلاث مرات، لم تعد لدي نفس الطاقة على فعل ذلك، ولم تعد بداخلي الرهبة من لمسهم والتعامل مع أجسادهم، لذا جاءتني فكرة أن أقوم بنقلهم جميعًا في غرفة واحدة، حتى أجلس بجانبهم، أحكي الحكاية لمرة واحدة، قررت أن أجمعهم مع مازن الراقد فوق سريره، وعلى السرير المجاور وضعت فريدة بنفس وضعها، بعدما رفعتها عن الأرض بحرص، سرت بها ببطء وكأنني أحمل روحي بين يدي، ثم احتضنت مرزوق من وسطه، كنت قد قررت أن أضعه في المساحة الفارغة بين السريرين، بحيث يكون واقفًا بالقرب من رأسيْ فريدة ومازن كأنه حارس لهما، كما كان دومًا حارسًا لنا قبل تحوله، وضعته في نفس المكان المحدد، لكن أثناء دخولي به للغرفة، ارتطم ذراعه في حافة الباب، سقط فجأة ساعده الأيسر مفتتًا، تألمت، أصابني الرعب لخطأي هذا، أن أخطئ وأتسبب في تفتت جزء منه، شعرت بأنني ارتكبت جريمة لا تغتفر، تخيلته عندما يعود للحياة معاقًا غير قادر على قضاء حوائجه بنفسه، حزنت وما هوّن عليّ الأمر هو عدم تعمدي فعل ذلك، أن النية كانت دومًا حسنة، هكذا قلت لنفسي، كما أنني لم أتخيل أن يتفتت

المطاط بهذه السهولة، بالتأكيد الأمر حدث لعطب ما كان يصيب ذراعه، دون أن أشعر .

جلست بجوارهم، اعتذرت لمرزوق عما حدث، اعتذرت لهم عما يمرون به، بينما ما زلت عاجزة عن فعل أي شيء، طالبتهم بأن يستمتعوا، ويسعدوا بوجودهم معًا، حكيت الحكاية الأخيرة من ألف ليلة وليلة، عندما انتهيت أغلقت الكتاب، شعرت أنني قدمت لهم ما فى استطاعتي، شعرت بشوق جارف لهم، وليامن ولعنادهم وتشاجرهم مع بعضهم بعضًا ...

أخذت وجبة، قمت بتجهيزها وتغليفها جيدًا مع زجاجة مياه مثلجة، وفي الطريق اشتريت عشرين رغيفًا، ذهبت للعجوز التي تبسمت عندما رأتني، قالت إنها كانت تعرف أنني سأعود سريعًا .

«حاسة إنى أعرفك من سنين ».

هكذا قلت وأنا أضع رأسي على فخذها، استعدادًا لسماع صوتها وحكاياتها .

قالت إن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، قالت الكثير، لم تتوقف عن الكلام، وظل بداخلي سؤال يتردد، كنت أرهب الخوض فيما يبدو أنه سر من أسرارها، لكنني تشجعت وفعلتها، لم تبد هي أي انزعاج، فقط قالت إن للموضوع قصة، لم تتردد، عرضتْ سريعًا

أن تحكيها، فرحتُ، اعتدلتُ في جلستي، جلستُ بجوارها متربعة، مشدودة بكل جوارحي لما ستقول .

حكاية الست التي نبت الريش على جسدها

قالت ونظرها يروح في الفضاء، كمن يسترجع ذكريات من ماضٍ بعيد، كنت أعيش كأي ست لها بيتها وزوجها الذي يحبها وتحبه، كان لي حماية وأمانًا، وكنت أظن أنني له سكن حتى اكتشفت خيانته، لم يخبرني بها أحد، لم أتوقعها، لم يكن هناك مجال للشك، لم أدرِ برد فعلي حينها، فهمت الصورة كاملة بعد ذلك بسنوات، الصدمة جعلتني كمن فقد الذاكرة، لكنه بدا كفقدان لذاكرة التعريفات، أي أنني كنت أتذكر كل الناس من حولي، أتذكر علاقتي بهم، وحكاياتي معهم، تفاصيل حياتي واضحة لي تمامًا، ولكن كحكايات بلا معنى، فما فقدت هو معنى الأشياء، فلم أكن أعرف مثلًا ماذا يعني الحب، الانتماء، التعاون، أتذكر موقف زوجي، أتذكر منظره مع عشيقته فوق سريري، ولم يعن لي ذلك أي شيء، لم يبث لي المنظر أي شعور، لأنني لم أعد أعرف ما هي الخيانة !

ما حدث أنني كنت أحس بأن الذي سلبني ذاكرتي هو هذا الرجل، كنت أشعر نحوه بانتماء دون معرفة أن هذا هو الانتماء، وكأن داخلي يقول لي إذا كان لدى هذا الرجل القدرة على السلب، بالتأكيد لديه القدرة على المنح، بالتأكيد سيكون قادرًا على أن يعيد لي ما سلب،

لذلك لم أكن أنجذب لأحد سواه، وكان ذلك مبررًا لدى الأطباء المشرفين على علاجي، كانوا يعطونه الوقت الكافي للجلوس معي، وإعادة صياغة التعريفات لعقلي، عقلي الذي صار كصفحة بيضاء، فظل بنفسه يعيد رؤيتي للحب، الصداقة، الحياة، السلام، الوطن ...

كنت أناقشه طويلًا، لم أكن أقبل بالتعريف المجرد دون نقاش، كانت تعريفاته كافية لإعادة الذاكرة لي، حينها فهمت ما فعل، وعرفت بعدما راجعت المعاني، ونظرت لها من بعيد، أنني بلا حب،
وبلا وطن، وبلا حياة حقيقية، أنني محض امرأة وحيدة .

في ذلك الوقت، كنت تعودت مراقبة الطيور؛ بجوار شباك حجرتي بالمستشفى، كانت شجرة ضخمة، تسكنها عائلات كثيرة، صادقتهم جميعًا، صرت أشعر بانتمائي لعالمهم، كنت معهم أكثر راحة، تمنيت لو يكونون عشيرتي، أستمع لهم، تتفتح مداركي على معانٍ أخرى، أتقن لغاتهم، ينبت لي الريش كزغب خفيف على جسدي، ينمو مع الوقت ويصير ريشًا واضحًا صريحًا .

كانت تحكي، ويبدو أن تعجبي من حكاياتها كان باديًا على وجهي، نظرتْ إليّ، تبسمتْ، أظهرتْ جناحيها، ضربت بهما الهواء وهي ثابتة بمكانها، وكأنها فعلت لتدلل على صحة كلامها، وبنظرة حنون دعتني، وجدتني في لمح البصر أعتلي ظهرها، ارتفعتْ بي قليلًا،

لم يكن لدي أي شعور بالقلق، ارتفعتْ حتى بدت العمارات من تحتي بعيدة، وأنا بأعلى دققت النظر في عالمنا بكل حكاياته وصراعاته اكتشفت أنه على قدر اتساعه إلا أنه بالفعل صغير، صغير إلى حد مضحك .

21

عرف الخال أنني عدت سريعًا لمغص وإسهال داهماني فجأة، بقي في غرفته، بينما دخلت لغرفتي مع فوفا، أطلعتها على أسراري، بعدما اتفقنا أن يكون بقاؤها معي سرًا لا يعرفه الخال، ولا يعرفه أحد في الدنيا، أن يظل شباك غرفتي مغلقًا، وأن يظل ما بيننا بيننا، حتى ترتب أمورها، وترحل في التوقيت المناسب .

حكيتُ لها عن عشقي للزراعة، بالقرب من النافذة شاهدتْ علب السمن النباتي القديمة، وقد ملأتها بالطين الممتزج ببعض الرمال، كما علمني شيخي فخر الدين ذات يوم؛ حتى تكسب الطين هشاشة أكثر بتغلغل حبيباتها بداخله، يمتزج بالطين والرمل أيضا بعض من نشارة الخشب، لاحتوائها على مادة السليلوز المغذية للنبات .

كانت بالفعل الحبوب تنبت بصحة جيدة، اتفقنا أن أخرج زرع الشباك لفوق السطح، مع باقي النباتات التي بأعلى حتى أستطيع الاعتناء به، دون فتح شباكي - زيادة في الحرص، فوفا اطلعت على زرعي، وعلى ألبوم طوابع البريد الذي أخبئه تحت مرتبة سريري، لم يكن لي هوايات أكثر من ذلك، ولأن الخال يأتي عليه وقت، ويتعامل معي كرقيب، وأنني مجرد أمانة لديه :

«أمك كتر خيرها جابتك هنا عشان تساعدني، يبقى على الأقل نخلي بالنا من مذاكرتنا ».

يقولها بلهجة جد صادقة متناسيًا كل الوقت الذي عودني على إضاعته يوميًا في مراقبة فوفا، وفي سرد تفاصيلها، وتفاصيل حياتها حتى أنني لم أعد أتخيل كيف كانت حياته قبل أن آتي إليه، في النهاية فضلت أن يظل زرعي وطوابعي سري الخاص، الذي أضفت إليه وجود فوفا معي، جميل أن يكون بالحياة سر خاص، لا أعرف لماذا أحرص على هذا دومًا، لكنني أشعر أن حياة بلا سر خاص هي حياة ناقصة، حتى لو كان هذا السر هو ألبوم طوابع يخبأ تحت المرتبة. منذ سنوات حين كنت في بيتنا، حرصت على ذلك أيضًا، كنت أضع في ركن قصي تحت سريري بلورة زجاجية، وضعت بداخلها ذات مرة دودة قز، كنت أدخل لها كل يوم في مخبئها، أضع لها أوراق شجر التوت، وأنتظر أن تصنع شرنقتها، وضعت بداخلها حلزونا، وجدته في إحدى الحدائق أثناء شتلي لشجرة جوافة، وضعت فراشة، وعنكبوت، وخنفساء... كنت أشعر بلذة كبيرة وأنا وحيد تحت سريري، مع عالمي الخاص، الذي لا يدري أحد عنه شيئًا .

ما استدعى مني وقفة للتفكير، أنني ذات يوم مررت بوعكة صحية، ألزمتني الفراش لعشرة أيام كاملة في أيام حر قائظ، كان زرعي هو أكثر ما يشغلني حينها؛ لن

يجد من يهتم به، وكنت أظن أنه بالتأكيد سيهلك..
لكنني عندما تعافيت، صعدت للسطح موقنًا بأنني سأشاهد كارثة، فوجئت بالزرع زاهيًا مترعرعًا، تربته مبللة، حين درت حول الموضوع مع الخال فاجأني بأنه كان يعلم بوجود الزرع منذ اللحظة الأولى، وأن سري لم يكن سرًا، أمام اندهاشي حكى لي بكل بساطة، بأنه ضرير، حياته مفتوحة أمامي، هو في كثير من الأحيان مضطر لذلك، لكنني مبصر، وما أريده سر، لا بد أن يبقى سرًا، حينها لم أستوعب كلماته تمامًا، لكن حبي له زاد، وبقيت أيضًا أتعامل مع نباتاتي كسر خاص .

حكت لي فوفا همسًا كيف كان زوج أمها يعذبها في صغرها، تزوجت من حسين معتقدة أنها سترتاح، لكنه أيضًا كان يعذبها ويضربها كل يوم، هكذا قالت لي إنه يضربها، بالطبع لم تستطع أن تقول لي تفاصيل أكثر من ذلك، تحدثت عن طريقته العنيفة في التعامل معها.. أنا تقبلت ما قالت، واندهشت لهذا الرجل الظالم الذي يضرب زوجته بهذه الوحشية، وعدتها أن تبقى بالبيت كسر أضيف لأسراري الخاصة، وأن يظل بيننا ما بيننا حتى آخر الحياة .

فوفا سألتني في أي سنة دراسية أكون، عرفت أنني في الصف الثاني الإعدادي، شجعتني بكلمتين، عن أهمية الدراسة، والاهتمام بالتفوق.. خلعت عباءتها .

«الدنيا حر، وأنا مش هتكسف منك، أنت زي أخويا ».

قالتها وهى تضع العباءة داخل حقيبتها، وتزيحها تحت السرير، حتى لا يعثر عليها الخال ولو مصادفة .

أتيت بالسندويتشات التي تركتها في الصباح، تقاسمتها معها، بعدما رفضتْ وهددتها بأنني لن آكل حتى تأكل معي.. أكلنا وشربنا الماء، كانت متعبة من وجودها طوال الليل تحت بير السلم، ودت لو ترتاح قليلًا، تركت لها سريري، مددت جسمي على الأرض، وقبل أن نروح في النوم، فتح الخال الباب فجأة :

«يامن .. واد يا يامن انت نمت؟ ».

انكمشت فوفا مدارية بشكل لا إرادي فتحة طوقها، بأن ضمت يديها إلى صدرها، بينما أنا ارتبكت، اضطررت أن أرد سريعًا، خوفًا من أن يتوجه للسرير ليوقظني :

«أنا هنا.. أنا قصادك أهه يا خالي ».

«وبتعمل إيه عندك على الأرض ».

قالها متعجبًا، بعدما سمع صوتي آتيًا من مكان بجوار السرير، وليس من فوقه كما اعتاد، فقد كان السرير هو المكان الذى أقضي عليه معظم أوقاتي، أنام وأجلس وألعب بطوابعي، ووقت المذاكرة أقرب منه الترابيزة المطوية، أستخدمها وأنا جالس عليه .

«مفيش براقب النمل وهو بينقل جناح صرصار لجحره ».

قلتها سريعًا بلا تردد كحقيقة؛ لأنني بالفعل اعتدت على فعل ذلك من وقت لآخر، ضحك الخال، تذكر يوم رأيت العقرب، واعتقدت أنه عنكبوت، جحظت عينا فوفا وانكمشت أكثر في مكانها، عندما سمعت سيرة العقرب .

سألني إن كنت سأتناول إفطاري معه، فهو ينتظرني، وعندما عرف أنني تناولته :

«طيب اعمل لنا اتنين شاي، وحط نص لمونة على كوبيتك عشان توقفلك الاسهال ».

كدت أن أسأله أي إسهال يقصد، ولكن في اللحظة المناسبة تذكرت كذبتي .

عملت ثلاثة أكواب من الشاي، واحدة دخلت لفوفا في حجرتي، واثنتين لي وللخال، وضعت نصف الليمونة على كوب الشاي الخاص بي بالفعل، جلست معه حتى لا يأتي لحجرتي، رشفة والثانية ثم فجأة :

«فوفا وحشتني أوي يا يامن، كانت عاملة حس في الحارة، كانت عمله طعم للدنيا كلها ».

قاطعته خوفًا من أن يزيد على ذلك، قلت دون أن أرتب ما قلته :

«آه فعلا كانت ست جدعة ...».

«جدعة! آه تقصد عشان كانت بتستحمل كل الفاكهة دي لوحدها ...».

ظل يضحك، ثم من بين ضحكاته :

«دي لبست فاكهة في الفترة دي تعمل شادر جملة ».

شعرت بسخونة تشع من أذني، فاجأته في محاولة مني لتغيير الموضوع قائلًا «الموت»، قال لي بلا تردد :

«الموت هو أن تكون فوفا بعيدة في مكان لا أعرفه ...».

لم أتركه يسترسل في حديثه أردت إبعاده تمامًا عن سيرة فوفا، طالبته بأن يتحدث في الموت ولكن بعيدًا عن فوفا، لم يكن يرغب في اللعب الآن ولكنني صممت، وقانون اللعبة يفرض عليه طالما نطقت بالكلمة فلا بد أن يجيب، هو وضع هذا القانون منذ زمن، ونحن نسير عليه بلا أي تجاوز، يومها حكى لي عن فكرة الفارس، وكيف أنه حين يدعى للنزال فلا بد أن يستجيب، ذكرته بكلامه.. سكت كعادته وكأنه يستجمع ما سيقول ثم انطلق يقول بتعثرات قليلة في البداية :

«خرجت من صالون الحلاقة، بعد قص شعري وعمل حمام كريم له، وماسك للبشرة، في البيت ارتديت بذلة

وقميصا جديدين، كنت متوجهًا لزفاف أحد الأصدقاء، حين قال لي تعال لتنتقي عروسًا، كنت يائسًا تمامًا من ملاقاتها، ضحك حينها وقال: «تعال فربما تختارك هي .»

وأنا في سيارتي، رن التليفون.. أخبروني بأن عمي الراقد في الرعاية منذ أسبوعين، يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنه نطق باسمي يود رؤيتي، كانت جدتي تقول إن الروح تظل معلقة في بعض الأحيان، تقاوم حتى يأتي من يريد العليل رؤيته، توجهت للمستشفى، كان الجميع يقف خارج الغرفة يبكي، تخيلت أنني حين أدخل سينظر لي العم ثم يطلق شهقة عميقة ليرحل في سلام.. كان جسده مسجى في وهن، شعرت أن حجمه أمامي أقل بكثير من حجمه الطبيعي، كان له جسد ضخم، كيف تحول لهذا القليل تحت الملاءة، قبلت جبهته.. وأنا أرفع رأسي عنه، شعرت بأنفاس من خلفي، استدرت وعيناي مليئتان بالدموع، التقيت بعينيها مباشرة، بدت طازجة الجمال، وكأنها صنعت توًا، بدت في ملابسها البيضاء كملاك، شعرت أنها ارتبكت، أنها انجذبت لي كما انجذبت لها، تذكرت قولة صديقي «تعال فربما تختارك هي»، اقتربتُ مني، تركتُ على طرف السرير شيئًا كان في يدها، جذبتني لركن بالغرفة، اقتربت وهي تنظر في عيني مباشرة، أنفاسها دافئة، لها رائحة أتذكرها حتى الآن، قبلتُ شفتي قبلة خفيفة، ثم أخذتهما بعنف في قبلة طويلة، طول حياة كاملة

مرضية، كان قلبي يدق بشدة، روحي تسوخ، وكأنها مرتبطة بشفتيها، شعرت بأنني أُستلب، وأن مع نهاية القبلة ستكون نهايتي، كدت أستسلم لاستلابها لي، لولا أن الباب فتح فجأة، دخلت إحدى الممرضات بكيس محاليل، ساعتها اختفتْ فورًا، بقيتْ ملابسها لوقت معلقة في الهواء تتخذ هيئة جسدها، ثم تناثرت كذرات غبار، بثت لي رسالة أنها الموت، وأنني أفلتُ بالصدفة في اللحظة المناسبة، كان الناس سيتعجبون، من الذي مات وهو يعود مريضًا، عمي عاش سنتين بعد هذا اليوم، وأنا أتذكر قبلة الموت التي افتديته بها حتى الآن .

الخال ظل يضحك منتصرًا بعدما قص حكايته، قال إنه سيقول لي سرًا، إن البنت التي احتضنها، البنت الجميلة التي كانت هي الموت، يتخيلها فوفا، ويتخيل حضنها الجميل هو حضن فوفا، قلت له لو أطلت الحديث سأطالبك بحكاية أخرى، ضحك ثم فجأة رد الكلمة قائلا :

"الموت ".

كنت أعرف أن فوفا تسمعني، وكنت أريد أن أنطق بأجمل ما عندي :

«لقد رأيت الموت مرتين من قبل.. الأولى لا أذكر منها سوى فشله في اختطافي، في الثانية جاءني على هيئة

طفل صغير، لم أتخيل في حينها أنه من الممكن أن يتجسد في صورة بهذه البراءة، كنت جالسًا في إحدى الحدائق العامة، أستمتع بدفء الشمس، وفي يدي كيس من الترمس، آكل وأجتر بداخلي بعض الذكريات.. ظهر لي متعثرًا في خطواته، ابتسم، داعبته برفع حاجبيّ بالتبادل، ضحك بصوت مرتفع.. أشرت له أن يأتي، كنت قد قررت أن أتعامل مع الأمر ببساطة، سأعامله كصديق قديم، فأنا اتخذت الكثير من الناس أصدقاءً بعد مقابلة واحدة، اقترب مني في تردد، جلس بجواري، تقاسمنا الترمس، حكيت له حدوتة واستمعت مرة أخرى لضحكته البريئة التي كانت تمس قلبي مباشرة، لكنه فجأة قطع ضحكته اختطف قلبي، وجدتني بلا قلب، كدت أنتهي، لولا تعثره في حجر يغطيه العشب، ساعتها طار قلبي لأعلى، واستطعت بالكاد التقاطه والفرار به ».

خرج الخال بعدما همهم ببعض الكلمات التي لم أسمعها، بينما فوفا لم تعلق على شيء سوى إعجابها باللعبة، حكيت لها عنها وعن اعتيادنا على ذلك معًا، سكتت، قالت لي: أتدري ما الموت الحقيقي؟

«هو أن تقضي حياتك مع إنسان تكرهه، بين جدران لا تطيقها ».

22

في إناء زجاجي، وضعت ما تفتت من ذراع مرزوق، كنت أجتهد حتى لا أترك ولو ذرة واحدة، كل أجزاء ذراعه المفتتة جمعتها .

لا أعرف لماذا كان لدي هذا الإصرار على فعل ذلك، لكنه شيء بداخلي دفعني لعدم التضحية بأي ذرة من مطاطه .

صار الذهاب للعجوز من المهام اليومية التي ألتزم بها.. أرتب لها فراشها أقدم لها الطعام والخبز، ثم أرقد بجانبها أضع رأسي على فخذها، تداعب شعري وتحكي، أو أحكي عما يختلج في صدري، كنت مهمومة، أشعر وكأن شروخًا ما أصابت روحي، ساعتها سألتها: هل تنشرخ الروح؟ جاوبتني سريعًا، وعيناها سارحتان في الفضاء كعادتها حين تحاول الإمساك بمعنى أو حكاية: وهل ينشرخ سوى الروح، قالتها، وربتت على كتفي بحنان، كنت أتمنى لو يعود مرزوق، حتى أشكره، لأنه فتح الطريق لمعرفتها، قلت لها إن مرزوق طيب، ولا أعرف لماذا لا تعتبره كذلك، حينها قالت إنها تعرف أن مرزوق يقوم بكل أفعال الطيبين، يأتيها بالماء والطعام، يساعدها في إطعام الطيور، يرتب فرشتها، يحاول باستمرار إصلاح عيوب أخواته، ومساعدتهن

على إقامة حياة مستقيمة مع أزواجهن، لكنها تعرف مع كل ذلك، أنه ليس بطيب .

هنا اعتدلت من فوق فخذها، جلست قبالتها متسائلة :

«إخواته مين؟ ».

حكت لي إنه في كل أسبوع يأتي بواحدة من أخواته يدخل معها للحجرة، ينزوي بها، ثم يخرجان ويسألني كالعادة، إن كنت أحتاج لشيء، يقبل يديّ ويرحل، في المرة التالية عندما يأتيني وحده، يحكي لي عن المشاكل التي تواجه أخواته مع أزواجهن، وكيف أنه يحاول طوال الوقت مساعدتهن حتى يفهمن طبيعة رجالهن، ويحيين حياة مستقرة .

قالت إنها تعرف أنه لا يفعل ذلك أيضا إلا طيب، ولكنها مع ذلك تثق أن مرزوق ليس بطيب .

«طيب.. آه طيب ».

ظللت أردد كلماتها الأخيرة، دون أن أعي ماذا أقول، وماذا أفعل، تركتها فجأة، قررت العودة للبيت، كان كل ما يسيطر عليّ أن ألقي به من شباك النافذة، حتى يسقط بالشارع، تمر عليه العربات والأرجل، تتبول عليه القطط والكلاب الضالة، أو أن أفتته تمامًا ثم أعجنه بماء نجس أصنع منه كرة تتناقلها أرجل الأولاد طوال النهار بالشوارع القذرة، أو أصنع منه تمثالًا رمزيًا

لشيطان، يتلقى البصاق والصفعات طوال اليوم من عوام الناس، أتركه لمصيره هذا وأبقى فقط بجانب أولادي، أحكي لهم الحكايات حتى يأتي يوم يعودون فيه لطبيعتهم، يعرفون أن أباهم كان خائنًا، وأن انتقام الرب منه، مسهم بما رأوا .

لكنني عندما وصلت للبيت، وقفت أمامه، وجهت له السؤال مباشرة، حول هؤلاء النسوة اللائي ادعى أنهن أخواته، وهو يعلم أن ليس لديه أخوات، بالطبع لم يجب، بقي صامتًا كما هو، ظللت أنظر إليه، لم أحتمل الفراغ الذي تحمله عيناه، كانتا ثابتتين على نظرة لم أتحملها بالفعل، نظرة لم تقدم أي إجابة تطفئ نيراني، كانت أعصابي مشدودة، حين لمحت السكين الصغير على الكومود، وجدتني أتناوله، ظللت أنغز في عينيه، أفرغهما من محجريهما، حتى صارتا كحفرتين عميقتين، فعلت ذلك سريعًا، وبقسوة، وكأنني أنفث عن غلي، أخرجت طاقتي السلبية كلها، عدت لحجرتي، جلست حتى هدأت نفسي قليلًا، حينها ندمت على فعلتي، ندمت لأنني نلت منه وهو بهذا الضعف، كان لا بد أن أنتظر عودته، ندمت أيضًا على فعلي ذلك أمام الأولاد، فما يدريني، لعلهما كانا يتألمان لما يحدث مع أبيهما، ولا يستطيعان التعبير عن آلامهما، كان شعورًا كبيرًا بالألم والندم يملؤني على ما فعلت، أتيت بإناء آخر، جمعت فيه كل البرادة والفتات الذي تساقط على إثر

تفريغ عينيه، وضعت الإناء بجوار السابق، وبقيت في حجرتي أحدق في الفراغ بمشاعر محايدة تمامًا .

23

دخول الخال علينا بشكل مفاجئ أعطى فوفا شعورًا بعدم الأمان، أصرت أن أنام في مكاني، وأن يكون مكانها أسفل السرير .

«مش هيجيلي نوم إلا لو استخبيت تحت ».

قالتها وهى تساعدني على رفع السرير، لوضع قالب من الطوب تحت كل رجل، حتى يرتفع أكثر عن الأرض، ولا يعطي شعورًا بالانقباض أثناء النوم .

فوفا كنست، وفرشت ملاءة تحت سريري، عندما نظرتُ إليها وهي نائمة، شعرت أن تحت سريري يوجد كنز عظيم، وأنه أصبح أجمل مكان بالدنيا .

كنت جالسًا على السرير، في يدي كتاب الإنجليزي، أراجع الدرس الأخير استعدادًا لامتحان في صباح الغد، بينما تجلس في أحد الأركان تقرأ ورقة من جرنال قديم، ربما كمحاولة لإضاعة الوقت .

كانت من حين لآخر تنظر إلي، أشعر بنظراتها، أتجاهلها مرتبكًا، وكأنني مندمج في المذاكرة، أعرف أنها استمعت لما قاله الخال، وأنها ستتجاهل الأمر منعًا للإحراج .

«إيه بقى موضوع الفاكهة اللي خالك اتكلم عنه ده؟ ».

سؤالها فاجأني، ظللت أستجمع الأحرف، لم تخرج مني كلمات مفيدة، مجرد مقاطع صوتية غير مرتبة، غير واضحة .

«انتوا صدقتوا اللي بيقوله أهل الحارة؟ ».

قالتها مستنكرة، قالتها بكل ثقة، حتى أنني بالفعل، لو لم أر بعينيّ لاقتنعت بأن الناس ظلمة، متقولون عليها بالباطل .

في نفس الوقت دخل الخال فجأة، صمتتْ حتى بدت لي كدمى أبي وإخوتي، كأنها صارت بلا أنفاس .

«تعالى بص كده، شوف يمكن تكون فوفا رجعت ».

حاولت التملص منه، لكنه أكمل :

«سيب اللي في إيدك، هي بصة واحده طمني..
وحشتني بنت الإيه ».

مد يده مشيرًا بأن أقوم وأمسك بها، بالفعل أمسكت بيده الممدودة تجاهي، قادني بيسر حتى شباكه، نظرت من الفتحة، جلس هو على سريره، قلت إن حسين يرقد على السرير وحيدًا، بملابسه الداخلية، يحتضن وسادة .

«الكروديا، يسيب فرسة أصيلة تهرب، ويعبط في شلتة ».

ضحكتُ، وما أن التفت حتى وجدتها خلفي تمامًا، شهقت ..

«مالك يا يامن؟ ».

«مفيش، دوست برجلي على لقمة ناشفة، كأنها مسمار ».

بعدما ضحك .

«لقمة.. استرجل شوية ياض، اوعى تطلع بتاع فاكهة، عايزك دكر زي خالك ».

أزاحتني، ألقت بنظرة سريعة على حسين، ثم عادت بهدوء إلى حجرتي :

«كان زمانه دلوقت بياكل فاكهة بالعسل ابن بنت المرة ».

قالها الخال، شعرت ساعتها أنني أود لو أقبّل يده حتى يصمت، فأنا الذي يتعرض في كل مرة للإحراج، خاصة أن صوته مرتفع بعض الشيء، وبالتالي يصل لفوفا كل ما يقول، الخال أربكني بشكل حقيقي، حين اشتكى لي أنه منذ اختفاء فوفا، وهو يشعر بوجودها أكثر، يشم رائحتها بشكل أوضح، يشعر بالرغم من بعدها أنها صارت أقرب، يشعر أن يديه تكادان تمسّاها، وأنه يسمع صوتها طوال الوقت يتردد بداخله :

«أنا اتهبلت ولا إيه يا يامن؟ ».

لم أتبين إن كان هذا شعوره الحقيقي، أم أنه يعلم بوجودها ويدعي عدم المعرفة كما يحب أن يفعل، حاولت أن ألتمس الحقيقة، تحدثت معه طويلًا، لم أصل لشيء، عدت لحجرتي وأذناي محمرتان، أشعر بسخونتهما، ولا أعرف كيف سأواجه فوفا، وجدتها تجهز حقيبتها :

«أنا لازم أمشي ».

قالتها هامسة، كانت تشعر بإحراج شديد، شعرت -كما قالت-بأنها تقف أمامي عارية :

«مش انتي قولتي إني زي أخوكي، حد يتكسف من أخوه الصغير ».

وبدلًا من أن أدافع عن نفسي، وبدلًا من شعور الخزي الذي كان يملؤني، ظللت معها حتى اقتنعت وبقيت معنا إلى حين ترتب أمورها، كان مجرد تهديدها بالرحيل كافيًا جدًا لأن يجعل قلبي يدق بشدة، وكأني أواجه رعبا، لعلها رأت ذلك في عينيّ، لذلك لم أحتج لمجهود كبير حتى أقنعها بالبقاء.. كما أنها بالتأكيد ليس لديها حل أفضل من بقائها معنا .

قالت إنها حتى وقت قريب لم تكن تعرف شيئًا عن وجودي بالبيت، فقط تعرف الشيخ يونس وتعرف أنه

كما قال لها حسين، ضرير ووحيد، وأن البيت كله شاغر وليس به أحد سواه .

حينها كدت أنطق وأحكي عن سر وجودي هنا، كانت طوال الوقت تسمع الخال وهو يثني على أمي وفعلتها ومساعدتها له، وكان وجودي لمساعدة الخال سببًا كافيًا لها أيضًا لوجودي، لكنني تمنيت لو يأتي الوقت الذي أشعر معها بالأمان الكامل، وأحكي لها الحقيقة، التي أقسمت لأمي أنها ستبقى سري حتى يشفى أبي وإخوتي .

كان الليل قد حل، وكنت أجلس فوق سريري، وبجانبي فوفا.. حينها دخل الخال، يرتدي فانلة داخلية بيضاء، يبان منها شعر صدره، الذي كان يبدو معه كإنسان غاب، يرتدي كلسونا مهترئًا .

«الحقني يا يامن مش عارف أأقعد ».

ساعتها شعرت أنه يمر بكارثة .

«مش متخيل أعيش من غير ما تحكيلي عن فوفا، وجسمها، وشقاوتها، من غير ما أحس إنها جنبي، واشم ريحة برفانها، وريحة طبيخها، مبقتش بحب الصبح اللي ييجي من غير صوتها وهى بتصبح عليا ...».

ظل الخال يتغزل في صوتها، ونعومته، في رقتها، والحروف التي تخرج من فمها مختلطة بالعسل :

«الظاهر يا يامن إن العسل عندها مش مع الفاكهة بس
».

كانت فوفا تستمع إليه بتركيزها الكامل، وكأنها تستمع لما تود سماعه بالفعل، نظرتُ للخال وهو يتحدث، نظرتُ له ممعنًا في ملابسه وفي ملامحه، اكتشفت أنني لا أحتفظ في ذاكرتي بتفاصيل وجهه، وكأنها المرة الأولى التي أمعن فيها النظر إليه، المرة الأولى التي ألحظ فيها أنه بالرغم من مظهره البائس، وملابسه الفقيرة المهترئة، لكنه ذو ملامح مليحة، لكنها تزداد ملاحة وألقًا حين يتحدث عن فوفا، حديثه عنها يمحو عن ملامحه كل بؤس، يعود بعمره سنوات للوراء، حديثه عنها يجعله يبدو مبصرًا !

استطاع الخال ببراعة أن يصف مشاعره، أن يعبر عن حقيقته كما قال لي في بداية تواجدي معه، كانت الألفة قد بدأت تدب بيننا، وكانت لديّ طريقة خاصة في ترتيب موقف به خداع، ثم أصيح متباهيًا :

«ضحكت عليك ».

حينها أوضح لي أن من السهل خداع الناس، بينما الصعب، وما ينبغي أن أفخر به، هو أن أعرف كيف أعبر عن حقيقتي، لا كيف أخفيها .

الخال يثبت لي طوال الوقت، أنه بارع في التعبير عن حقيقته .

24

عندما أشعر بالضيق أخرج طاقتي في الشغل، هكذا تعودت منذ زمن، كنت عندما يضايقني مرزوق في أمر ما، آتي بالصابون السائل، وفرشاة البلاط، وأظل أدعك في الحمام بحوائطه السيراميك، والحوض والتواليت، حتى أجعله يلمع وكأن كل شيء به جديد لم يستخدم من قبل، وكانت طاقة الغضب التي بداخلي تذوب مع الجهد المبذول، ربما لذلك استيقظت بعد الفجر بقليل، ظللت أعمل على ترتيب ونظافة البيت، أجهز الوجبات، أغسل السجاد، حتى هلكت تمامًا، عند الساعة الرابعة، كانت طاقتي قد استنفدت، أخذت الوجبات وقمت بتوصيل الطلبات الثابتة، للمصانع والشركات المتعاقدة معي، وقبل المغرب بقليل، قررت أن أذهب للعجوز .

في الطريق، أشارت لي سيدة، وقد اعتدت أن أقوم بتوصيل السيدات في طريقي مقابل أجر لزيادة الدخل، وقفت لها بعدما قالت :

«آخر الشارع ».

وهى تمد يدها بالأجرة، فور ركوبها :

«اتفضلي يا أصيلة ».

وهي تتحدث معي، كررت الكلمة أكثر من مرة، حتى قالت في إحدى المرات :

«يا أصيلة يا مرات الأصيل ».

حينها سألتها أن توضح الموضوع بالضبط، طلبتُ الأمان، وقبل أن تحكي أقسمتُ أن ما ستقوله هو الصدق بعينه، سألتُ عن زوجي، أخبرتها بأنه مات، لا أعرف لماذا نطقتُ بالكلمة سريعًا، ظلت السيدة تردد :

«الله يرحمه، كان نعم الرجال ».

عندما أعطيتها الأمان، وأقسمتُ أن ما ستقوله سيظل سرًا بيننا، قالت :

«وربك ستار، أنا كنت بعمل حاجة غلط، عشان أكسب لقمتي ...».

حكت عن مرزوق الذي ركبت معه أكثر من مرة، وعرف من خلال مكالماتها بالتليفون، طبيعة عملها، نصحها بكلام لم تسمع في مثل حلاوته، وصدقه :

«ولو على الفلوس، أشوفلك شغلانة ».

هكذا قال لها حينها، وبالفعل عملت في مصنع، كان ملكًا لأحد أصحابه، حكت عن يوم أخذها لسيدة عجوز حتى تراها وتتعظ، وتعرف أن الرزق يأتي للإنسان حتى لو كان ضعيفًا قعيدًا، جلسنا بغرفتها الداخلية، كان

ينصحني لوجه الله، وكنا نسمع الناس بالخارج يأتون لها بما رزقهم الله حتى بابها، مس كلامه قلبي، وكنت كل حين، آتي له بإحدى زميلاتي بالعمل السابق، حتى يُسمعهن ما أسمعني، لعل الله يغفر لي بنيتي الحسنة تجاههن .

ظلت تحكي عن أفعال كثيرة لمرزوق، وكلمات كثيرة تتذكرها مست قلبها، وقلبت حياتها رأسًا على عقب، ساعتها اعتصرني الندم، شعرت بغبائي، وقلة حيلتي ...

ذهبت للعجوز، أسندت رأسي على فخذها، ظللت أبكي، لم تكترث لبكائي، الذي بدا كخلفية لحكاياتها، حكت كما تحكي في كل مرة .

قلت إنني اليوم أود الحكي عن نفسي، لم أعد قادرة على الاحتفاظ بسري أكثر من هذا، لم أعد قادرة على تحمل العبء وحدي، العجوز كانت تسمع وهي صامتة، أسررت لها بكل ما جرى لي ولأسرتي، لم تندهش لأي مما حكيت، تقبلت كل أموري بلا انزعاج، وفي النهاية تساءلت لماذا سكت كل هذه الفترة، لماذا كتمت همومي وظللت أستمع لهمومها، قالت إنها انتظرت أن أتكلم، وإنها كانت تعرف أن حلول مشاكلي بين يديها، حتى دون أن تعرف ما هي مشاكلي بالضبط.. قالت إنها لن تطلب مني سوى أمر واحد، أن أقص عليهم ما تحكيه لي في كل مرة، أن أحكي بنفس الترتيب، وبنفس

الألفاظ إن استطعت، طلبتُ ألا أضيع الوقت أكثر من ذلك، وأن أبدأ من اليوم .

في ذلك الوقت ملأني شعور بأنها قادرة على حل مشكلتي بالفعل، وأن لديها من المعرفة أضعاف ما لدي، وأنها بالتأكيد عاشت ورأت ما يفوق ما رأيت بكثير، حينها شعرتُ بأنني ألوذ وأحتمي بها، وأنها ربما كانت الرفاعي الذي تمنيت وجوده ذات يوم، سألتها إن كانت رأت ما ماثل حال أسرتي.. حكت طوال الليل عمن سُخطوا لحيوانات، أو لدود في باطن الأرض، ولم يعلم عنهم أحد شيئًا ليوم الدين، حكت عن أرواح تسكن أشجارا وقططا وحجارة، وعن أرواح تسكن أواني الطعام، ولكنها لم تر أناسًا تحولوا لدمى، حكت عن أسفارها لأعلى، وعن الحياة من هناك، من فوق السحاب، حين يصبح الجميع على نفس المسافة منك، وتصبح أنت على نفس المسافة من الجميع، وترى الكل متساوين، حين لا تنخرط في صراع ولا تتلوث يداك أو ضميرك بالخوض في تلك الحكايات البائسة التي لا تنتهي، أن تظل هناك بأعلى حرًا طليقًا، حكت أنها رأت الكثير، وعاشت الكثير، وصارت لديها قناعة حقيقية بأنها اختارت الأنسب ...

عادت مرة أخرى لنكبة عائلتي، التي لم تر مثيلًا لها، لكنها بدت وكأنها تذكرت فجأة شيئا ما، هناك، في تلك القرية النائية، بدت وقد تذكرت، وصارت الحكاية أمامها

مكتملة، كنت قد قررت الذهاب والعودة في الغد، لكنها أصرت أن أبقى وأن أسمع، فقد يكون هنا يكمن السر، كان الوقت قد تأخر، والنجوم بدت من فوقنا لامعة، والسماء قريبة وحانية، حينها نطقت ببطء حتى أصمت، وأستمع .

حكاية الرجل وجنيته العاشقة

الرجل كان فلاحًا كأي فلاح بقريته، يستيقظ قبل الفجر، يذهب للترعة الصافية التي تمر أمام منزله، يخلع جلبابه، ويغطس بها، يستحم ويتوضأ، ويذهب للمسجد القريب، يلحق بالفجر، ويعود لمنزله، ليجد زوجته وأم أولاده السبعة أعدت له الإفطار والشاي، يقبلها على غير عادة رجال القرية، يلقي السلام ويذهب للأرض، وقبل الظهر يفك منديله يستخرج رغيفين و«خرطة» جبن وبصلة، يأكل ويحمد الله وينام قليلًا تحت شجرته المظللة، وحين يستيقظ، يشعل كانونه ويشرب الشاي تحت نفس الشجرة مع مجموعة من الأصدقاء، يحكون قليلًا، ويتضاحكون، ثم يقومون لاستكمال أعمالهم، ويعود قبل المغرب يقبل زوجته، ويقبل أبناءه جميعًا، يأتي المساء، ويبقى بمنزله يتسامر معهم ويأتنسون ببعضهم بعضا، يلقي عليهم الحكايات والأحجيات، وترقص البنت الصغيرة، ويغني الولد الأكبر قليلًا، وتضحك الأم من قلبها، ويسعد قلبه بهم وبرؤيتهم من حوله، فلا يغادر بيته للمقهى ليلًا؛ يتناول عشاءه باكرًا،

ويدخل لحجرته مع أم العيال، يناغشها وتناغشه يداعبها طويلًا على غير عادة الرجال بقريته، يعتليها وتكون فى استقباله رطبة وشهية، ينام دون أن يشعر أنه كان مراقبًا طوال اليوم، في جميع أحواله، وهو يستحم، وهو يعمل ويأكل ويضاجع، لم تفارقه تلك الجنية، سوداء العينين ذات الرموش الطويلة، والجسد البكر الذي لم يعتلِه إنس أو جن، جسد مشدود بلا ترهلات، طري وكأنه
بلا عظام، تراقبة ليل نهار، وتتمناه في كل أفعاله، تتمنى أن تكون بجانبه، تمسح عرقه حين يضرب الأرض بفأسه، وتجري خيوط العرق على جبينه، تتمنى أن تغطس معه بالترعة، وتدلك جسده بالماء والصابون، تتمنى في المساء حين يغلق باب حجرته، أن تكون هي التي بجواره في السرير، هي التي بأسفله، وهي التي تتأوه وتبتل وتنام مرضية ...

كانت تبدو كملكة للجان، لها هيبة، تخطف القلوب والأبصار، ولم يكن في عشيرتها من لم يتمناها ويحلم بها، ولم يرها إنسي إلا وتلاشى خوفه وسيطرت عليه شهوة جارفة لاعتلائها، لكنها كانت دومًا غير مستعدة لذلك، وفي ليلة استبدت بها رغبتها فيه ظلت طوال الليل تراقب ملامحه وجسده وهو نائم، وقبل الفجر انتظرته عند الترعة، وما إن نزل للاستحمام، حتى قررت الفعل، قررت أن تخرج عن صمتها، سرقت ملابسه من فوق غصن شجرة على حافة الترعة، وحين اضطر

للخروج عاريًا، ظهرت تمد يدها له بالملابس، يقترب، وكلما هم بإمساكها، تضحك بميوعة وهي تتراجع للخلف، وحين سقطت، وسقط بجانبها، دخل في جلبابه سريعًا، رحل، لم يهتم بجسدها الذي تفوح منه الشهوة، رحل دون أي التفاتة للخلف، كررت محاولتها مرة وثلاثًا وعشرًا، بأشكال وطرق مختلفة، وفي كل مرة كان يتجاهلها كأن لم تكن، ويتسرسب من بين يديها، تاركًا لها اللوعة ولهيب شهوتها، حتى جاء مساء مشؤوم وجد زوجته التي كانت بين يديه يداعبها وتداعبه تتحول لقردة هزيلة، الشعر المنحول الأجرب يكسو جسدها، حينها فهم اللعبة، أسرع ليطمئن على أولاده، لكن الجنية كانت قد سبقته إليهم، ومسهم انتقامها أيضًا، وجدهم سبعة قرود، منهم من يسهر ليذاكر ومن ينام على بطنه ومؤخرته تبدو حمراء شاخصة لسقف الحجرة، ظهرت له الجنية ضاحكة لترى حيرته، أراد أن ينال منها، ود لو يقتلها، لكنه لم يستطع التعامل مع حيلها، حين شعر بضعفه أمامها أرادت مساومته، لكنها أدركت أنها لم تثره، وأنها لم تحرك له شعرة واحدة كما قال لها، وأنها لو نالته ستناله ليس لأنه يريدها ولكن لأنه يحتاج إلى الخروج من ورطته، هنا شعرت بهزيمتها في كل الأحوال، حينها اختفت تمامًا، تركته ليبقى معهم يلف على الأطباء، والشيوخ والقساوسة بالقرية، لم تعد تظهر له، ولم يعد عقله يستطيع الصمود طويلًا مع أسرته على هذا الوضع، حتى اختفى، لم يعرف أحد هل مات غريقًا

بالترعة كما يشاع، أم هام على وجهه تاركًا القرية كما يؤكد البعض ...

أنهت العجوز حكايتها ثم ركزت عينيها عليّ، وكأنها تنتظر رد فعلي، لم أكن منزعجة، كنت أعرف أن مرزوق لا يختلف عن رجال بلدتنا، وليس به ما يغري أي جنية، كان كمعظم الرجال بالقرية،
لا يداعبني كثيرًا، ولا يقبل أيدي أولاده .

25

أعددت الإفطار لي وللخال ولفوفا، غيرت ملابسي بالصالة؛ كنت أحرج من تغيير ملابسي أمامها، دخلت لتجهيز حقيبتي، كانت مستيقظة، أطلت برأسها من تحت السرير، قالت: صباح الخير، ثم أتبعتها مباشرة :

«هو أنا كنت ببقى عاملة إزاي؟ ».

سألت متلهفة، وكأنها ظلت طوال الليل تفكر في ذلك، في البداية أبديت عدم فهمي عما تتحدث، راوغتُ قدر المستطاع، حتى قلت بعدما عادت السخونة لأذنيّ :

«مش عارف، بس خالي بيقول إنك فرسة ».

ظلت تسأل، وأجيب بكلمات قليلة، وفي النهاية فررت بحقيبتي إلى المدرسة، ووجهي ملتهب من السخونة .

أتيت لها عند عودتي بالجرائد حتى تجد ما يشغل وحدتها، يبدو أن الخال لم يجد ما يسد الفراغ الذي سببه غياب فوفا، نزل ليجلس على المقهى، كما كان يفعل في الماضي، ظللت وحيدًا معها، عادت للأسئلة، في البداية كنت منكمشًا، أتكلم بحرص، بعد قليل استطاعت أن تفك عقدة لساني، حكيت متحررًا وكأني أحكي لصديق، أو كأنها ليست طرفًا في الحكاية،كانت

تضحك كلما سمعت ردود أفعال الخال تجاه وصفي لها، كأنها رأته وهو مضطجع.. يردد :

«يا نور المصطفى ».

دخلتْ لحجرة الخال، تابعتْ حسين قليلًا من خلف الشباك المغلق، بدا في وحدته ذابلًا، ضحكتْ عندما وجدته يلف ساقه حول وسادته، تذكرتْ تعليقات الخال، رددتْ كلماته، قالت إنه من الظرفاء أصحاب التأثير ...

في المساء عاد الخال مهمومًا، وكأنه لم يخرج، ولم يغير جوا كما قال .

أول ما فعل أن تساءل إن كانت فوفا قد عادت أم لا؟ كانت فوفا تستمع لكلماته، وتستشعر لهفته على عودتها بفرح داخلي بادٍ في عينيها .

حدثني والحيرة بادية عليه، عن شعوره بحضور فوفا أكثر بعدما هربت، قال إنها باتت تسيطر على كل حواسه، يحسها ويشمها، ويستشعر أنفاسها فوق جلده.. قال إنها جعلته يدرك أن هناك أناسا كلما بعدوا ازدادوا قربًا .

في منتصف الليل استيقظتُ، كان باب حجرتي مفتوحًا، وأنا الذي أغلقته بنفسي قبل النوم، نظرتُ تحت السرير، لم أجدها، خرجت قلقًا، ملهوفًا عليها، اعتقدت أنها تركتني ورحلت، قلبي يكاد يفتك بقفصي الصدري، لم

أهدأ إلا حين لمحتُ ظلالها في غرفة الخال، تقدمتُ ببطء،كانت تقف أمام سريره، وكان يغط في النوم بكلسونه المهترئ وفانلته التي بدا فيها كغوريلا، تتأمل ملامحه، كأنها تحاول حفظها، أو تحاول فهم شيء ما، تنظر لرأسه كأنها تتساءل عما يدور بداخله، عن إذا كان يحلم بها الآن، أم أنها تشغله في صحوه فقط .

عدت لمكاني دون أن تشعر بي، عادت لحجرتي بعد قليل، أغلقتْ الباب، انزوتْ تحت السرير .

بعد دقائق وجدتها تقوم وتحاول إيقاظي، اضطررت أن أمثل الاستغراق في النوم، ثم الاستيقاظ متسائلًا :

«خير يا مدام فوفا ».

استدركت قائلًا :

«فوفا ».

كانت قد أخذت عليّ عهدًا، أن أخاطبها بلا مدام، وبلا أي ألقاب .

«عايزة أطلب منك طلب.. بس متكسفنيش ».

بالطبع لم أكن أملك معها سوى تحقيق رغباتها، بكل ود، حتى لو كان فيما تطلب هلاكي.. أبديتُ موافقة فورية.. شكرتني بصوت هامس، وقبل رجوعها لمكانها، حاولت معرفة ماذا تريد، ما طبيعة الطلب... لكنها رفضت

تقديم أي إجابة، قالت غدًا ستعرف ما يدور في ذهني، دخلتْ لمكانها وشعرتُ بأنفاسها تنتظم، وكأنها أزاحت همًا يجثم على صدرها، تركتني وحيدًا مستيقظًا، أفكر طوال الليل فيما تريده مني فوفا .

26

وكنت في كل يوم قبل الغروب أجلس بجانب العجوز، أطمئن عليها وعلى أحوالها، أفترش الأرض، أجعل من فخذها وسادة، أستمع لحكاياتها التي ليس كمثلها حكايات، وإن كانت لا تستقر في ذهني، ولا أفهم الكثير مما يقال، لكنها تحكي فتملكني، أعود كالمخدرة، أعيد الحكاية بنفس ترتيبها، وألفاظها، كمن يحمل رسالة، ما أن أحكي حتى أنسى كل ما قالت، أنتفض وكأنني عدت لعالمي الذي إليه أنتمي .

في المرة الأولى، لم أصدق نفسي، كان مرزوق والأولاد كما هم ثابتون، ولكن حدثت المعجزة؛ تحولت أنوفهم لأنوف من لحم بشري حقيقي، باقي الوجه والجسد كان من المطاط كما هو، ظللت أتحسس أنوفهم طوال الليل، غير مصدقة، زاد أملي وإيماني في أنهم سيعودون، لم يعد ما أحمله لهم مجرد مشاعر، صرت أملك شيئًا حقيقيًا، دليلًا واضحًا على أنني لم أكن حالمة، وأنهم بالفعل في طريقهم ليعودوا كما كانوا بشرًا أسوياء، سيعود بيتنا كما كان، سنعود كأسرة من أب وأم وأبناء بأجساد حقيقية كباقي البشر، وليست من المطاط ذي الرائحة النفاذة والملمس البارد، قضيت ليلة فرحة، لم أشعر بمثلها منذ سنوات، تردد بداخلي أنه ليس هناك أجمل من أن تشعر بأن أحلامك تتحقق، وبأن ثمرة

مجهودك تنضج أمام عينيك، وحان وقت قطافها، لتنز عسلًا يكسو طعم الأيام القادمة .

في اليوم التالي، ذهبت متلهفة للعجوز أبلغتني أن الحكاية السابقة كانت لإعادة حاسة الشم، تكرر نفس الشيء وعدت حاملة لحكاية جديدة، قصصتها وكما حدث في المرة السابقة نسيتها، بعدما انتفضت، وجدت آذانهم حقيقية، فهمت أنها حكاية لإعادة حاسة السمع، أسررت في أذن كل واحد منهم أنني أحبه وأنني أشتاق لعودته، همست بأسفي لمرزوق على ما فعلت، وعلى شكي في سلوكه، عبرت له عن ندمي، وعن أمنيتي في الحصول على غفرانه ...

عدت لها في اليوم التالي، كانت قد طلبت الأقداح التي بها فتات أعضاء مرزوق المحطمة، ظلت تحكي لهم ما لم أسمعه، كانت تقترب بفمها من الأقداح، وتسر لهم بحكاياتهم الخاصة، وعندما عدت وجدتهم، يعودون كما كانوا، في لمح البصر لجسد مرزوق، الذي صار له عينان، هو والأولاد بعد حكاية اليوم، عينان حقيقيتان، بجفون وأهداب، صرت أحس بهم أحياء، صرت أكثر تشبثًا بأملي في عودتهم، أراهم في كل يوم يعودون تدريجيًا، حاسة بعد أخرى، حتى كانت حاسة اللمس، ووجدت كل أجسادهم تعود للحم البشري، عادوا بأجسادهم، وأشكالهم الطبيعية، لكنهم لا يتحركون، ولا يتفاعلون معي، مازال مرزوق يقف بين السريرين،

بينما مازن يرقد على ظهره واضعًا ساقًا فوق أخرى، وترقد فريدة على بطنها، بساقٍ مفرودة وأخرى منثنية لأعلى، لكن صارت لهم أجساد آدمية، لم يعودوا مجرد دمى جوفاء، صاروا بشرًا أستطيع أن أحتضنهم، وأستطيع أن أشير إليهم قائلة إن هذا زوجي، وإن هؤلاء أولادي ...

صرت أنتظر حكاية اليوم التالي، التي بالتأكيد ستعيدهم إليّ، وسأستمع لأصواتهم أخيرًا ترن في أذني، سأصمت تمامًا من الغد، سأتفرغ للنظر إليهم وإلى ملامحهم وأعضائهم وهي تتحرك أمامي، سأتفرغ للاستماع إليهم ولحكاياتهم، ولكل ما عاشوه في السنوات التي مرت علينا عصيبة، أنا حكيت لهم كثيرًا، أشتاق لسماعهم، بالتأكيد لديهم الكثير من الحكايات الغرائبية، حكايات من عوالم عاشوها، ربما ستقدم لي أسبابًا واضحة لما مررنا به، ربما أيضًا لن أهتم حينها بأسباب، سأكتفي فقط بمشاهدتهم، بالاستمتاع بوجودهم الذي لطالما تمنيته .

27

دخلت فوفا على الخال وهو نائم ليلًا، جلست بجانبه على السرير، نظرت إليه، تأملتْ ملامحه البائسة المحرومة، قبلت وجنتيه ورقبته، لمست شعر صدره، لعلها جذبت واحدة، فقد قام الخال مفزوعًا :

«مين.. مين هنا؟ بسم الله الرحمن الرحيم ».

هنا عانقته ووضعت شفتيها فوق رقبته، قالت بكل دلال، وبصوت عميق كأنه يأتي من بعيد :

«أنا فوفا يا يونس ».

ركبت فوقه، ضمته بشوق، الخال لم يتردد، ضمها بشدة، عضوه كان جاهزًا من تحت ملابسه، بالتأكيد شعرت به دافئًا بين فخذيها، كان كل منهما يرتدي ملابسه، وكان شوق الخال جارفًا، فقد تشبث بها منتفضًا قبل مرور الدقيقة، حاولت الابتعاد عنه، لم يتركها، بالتأكيد أحست ببلله :

«استنى بس هقلع هدومي، عشان نكمل ».

قالتها، وابتعدت.. حينها دخلتْ كما هو متفق، خرجتْ هي في هدوء .

«خالي يونس، اصحى يا خالي ».

قلتها بانزعاج حاولت أن يبدو مقنعًا، وضع يده متحسسًا بلله :

«يامن؟ هو فيه إيه؟ فين فوفا؟ ».

ظل يتخبط في الظلام، كاد أن يبكي، فوفا تسحبت من أمامي ببطء، كان جسدها ينتفض وهي في طريقها لحجرتي، لتنكمش تحت السرير، شرب الخال كوب الماء على دفعة واحدة، ظل غير مصدق أن ما عاشه مجرد حلم، أقسم أنه كالحقيقة، وأنها كانت بين يديه، بدفئها، وصوتها المثير :

«هي كده الأحلام يا خالي بتبقى زي الحقيقة ».

قلتها وكأنني أذكره بحقيقة راسخة .

«أنا اتجننت ولا إيه؟ ».

كان غير مصدق ما حدث، تساءل عن سبب وجودي في حجرته الآن، قلت إنه كان يطلق أصواتًا ويردد كلمات بصوت عال أيقظني قلقًا عليه، وبخني لأنني أيقظته، قال إنني حرمته من أمتع لحظات حياته، حذرني من إيقاظه من أي حلم بعد ذلك .

«لو شفتني بولع على السرير، متصحنيش ».

قالها بصوت مخنوق، ثم عادت ملامحه أشد بؤسًا عن ذي قبل، وكأن ما فعلته فوفا لم يروِه، بل زاد فقط من

حرمانه، ومن شعوره بالحاجة .

تركته يلهث، عدت لحجرتي، مفتعلًا النوم، كنت أعرف أن فوفا أيضًا تفتعل النوم، أسمع صوت ارتجاف جسدها .

في الصباح وأنا أجهز الطعام، وقفت بجانبي، اقتربت بقدر أربكني، حاولتْ أن تستجمع كلمات تشكرني بها على فترة الاستضافة، قالت إنها ستعود لحسين، وتتحمله، وإنها عندما فكرت بهدوء عرفت أن العالم لن يحتفي بها، وسيقابلها زوج أمها بما هو أعنف، وضعت قبلة دافئة على جبيني، في هذه المرة فشلت كل محاولاتي فى إقناعها بالبقاء ولو ليومين آخرين، قالت إنها كانت تتعجب من مشهد المبارزة في السينما، فإذا تبارزت أنا وأنت، واستطاع أحدنا أن يطيح بسيف الآخر، لماذا لا يكتفي بذلك ويعتبر أنه بهذا انتصر، لماذا يصر على غرس السيف في جسد صار أعزل؟ حين رأت بالأمس حسين يتقلب وحيدًا في الفراش، تذكرت صرخته حين شعر بهروبها، اكتفت بنصرها هذا، وقررت ألا تغرس السيف في جسده .

أدركتُ أنها النهاية، وأنني مهما قلت لن تبقى معي دقيقة أخرى، استطعت فقط الحصول على وعد، أن تعود وقت ما يضايقها حسين،
ولا تفكر أبدًا في الفرار بعيدًا.. نزلتُ معها الدرج، الذي بدا صوته بالنسبة لي كأنه يئن، خرجتُ ثم أشرتُ لها أن

تأتي، بعدما تأكدت أن لا أحد في الشارع، مرت لبيتها في غمضة عين، وكأنها فعلت بي كما فعلت بالخال؛ وقفتُ بين بين، متشككًا لا أعرف هل كانت معي بالفعل، هل صعدت لحجرتي وأكلت ونامت وضحكت، أم أن كل ما سبق كان مجرد حلم .

استدعيت كلام الخال، حين أقنعني من قبل أن لكل إنسان فرصة واحدة في حياته، لأن يكسر أيًا من قوانين الطبيعة، بكل سهولة .

يستطيع أيٌّ منا أن يطير محلقًا في الهواء، مقاومًا قانون الجاذبية، أو أن يطفو فوق سطح الماء، وهو لم يتعلم السباحة من قبل ...

الآن تمنيت لو أخرق قانون الزمن، لو تكون لديّ القدرة على العودة بالزمن لوقت كنا نصعد معًا الدرج، لتبدأ من جديد أجمل لحظات حياتي، حين كانت فوفا في حجرتي .

عدتُ من المدرسة، بعد يوم طويل لم أركز خلاله في كلمة واحدة، وجدت الخال ما زال يتساءل :

«دي قالت كده بالظبط، أنا فوفا يا يونس ».

هذه المرة كنت متعاطفًا معه بشدة، هذه المرة كانت الأولى التي أقترب فيها أكثر، ولا أتحرج من أن ألقي

بنفسي في حضنه وأبكي
بلا صوت .

28

في اليوم التالي، ذهبت للعجوز في نفس الموعد، كنت منذ الصباح أود زيارتها، لكنني أعلم أنها لن تكون جاهزة لاستقبالي إلا عند الغروب، الميعاد الذي خصصته لي، كما خصصته لها، كانت في مكانها، وكان فخذها معدًا في انتظار رأسي ليتوسده، كانت أكثر المرات انتظارًا لحكيها، هذه بالتأكيد الحكاية التي توصف بأنني أنتظرها بفارغ الصبر، هي سيدة الحكايات كلها، ستصلني باللحظة التي عشت سنوات من عمري أتمناها، سنوات أصابتني فيها الحيرة والملل والتعب، لكنني أبدًا لم أيأس .

العجوز حكت كما تحكي، واستمعت لها بكل تركيز، لكنني لم أشعر أنني أحمل حكاية، لم أشعر بأن لدي ما سأقصه عليهم في البيت حين أعود، عندما شكوت لها من ذلك، استفسرتْ وتبينتْ أن كل حواسهم قد عادت، وأنهم صاروا كاملين بأجسادهم، لا ينقصهم سوى أن يعودوا بأرواحهم، فما زالوا كجهاز متوفر به كل المكونات ولكن لا يعمل، هنا أكدت لي العجـوز وشعور بالأسـف يملؤها، أن ما تبقى لا تملك له شيئًا، أن ما تبقى هو دوري أنا، فهي لا تملك حكاية لتعيد الروح، حكاياتها للجسد بحواسه فقط، أوضحت لي حين لمحتْ الحزن

باديًا في عيني أن أرواحهم ستعود من حكاية أحكيها أنا، حكاية لدي لكنني ربما لا أعرف تمييزها .

قالت إن ضمن كل الحكايات التي أملكها، هناك حكاية واحدة هي القادرة على أن تستعيد أرواحهم، حكاية ينتظرونها، ليتحركوا ويضحكوا ويتكلموا، حكاية لا أعلم عنها شيئًا، أهي سعيدة أم حزينة، طويلة متشعبة أم قصيرة موجزة، عن الوحدة والفقد، أم عن الحب والدفء؟ لا أعرف ولم يعد أمامي بد من أن أقص عليهم كل الحكايات واحدة تلو الأخرى، حتى تأتي الحكاية التي ننتظرها جميعًا بكل شغف .

29

عندما عادت فوفا، لبيتها، خالفت ظني لم تغلق شباكها كما توقعت، وكانت في كل يوم تقف، تنتظر الشيخ يونس لتقول له بصوتها الرقيق :

«صباح الخير يا شيخ يونس ».

فيرد عليها باطمئنان وفخر :

«صباح الفل يا ست الكل ».

صارت تتبادل معه يوميًا، جملة أو جملتين بجوار تحية الصباح، صارت تتحرك في حجرتها، وهي تعلم أننا نراها، وتنام مع حسين وهي تعلم بأننا نشتهيها، صارت أكثر سخاءً، تتيح لنا دومًا الزاوية التي تحقق الرؤيا الأكبر والمتعة الأوفر .

لم تغير الأيام ارتباطنا بها، مع الوقت والسنين لم يخفت أبدًا شغفنا ولهفتنا على رؤيتها، كأنها جذوة نار لا تنطفئ، صرت أداعب جسدي كما يفعل الخال، أحلق ذقني كما أحلق ذقنه، أسخن المياه لدخول الحمام لي وله، صرنا كروح واحدة مقسمة على شخصين، صرت أعرف كيف أضيف التوابل للحكايات، كيف أجعله لا يمل، ولا يفقد الرغبة أبدًا في فوفا، التي صار ثدياها متهدلين، وجسدها مرتخيًا دون أن يدري، جاءني خاطر

أن الخال ستنتهي حياته يوم تفقد حكاياتي بريقها بالنسبة له، أو يوم يفقد الرغبة في فوفا، بقيت كقناص يحاول طوال الوقت الإيقاع بما يرضيه من حكايات .

عاد الخال معي لزيارة السينما مرة كل أسبوع، يجلس بجواري منكمشًا كطفل فرح، محاولًا الاستماع إلى صوتي المنخفض، وأنا أصف له ما يدور بالفيلم لنخرج ويبدأ هو في التحليل، ومحاولة الوصول لجماليات كانت غائبة عني .

بقينا أنا والخال هكذا نتبادل الرؤية بعيون بعضنا بعضا، وبقيت هانم، وحيدة هناك مع دماها الطرية، التي تقص عليهم طوال الوقت حكايات، وتنتظر في لهفة لم تخفت أيضًا، أن توقع بالحكاية التي تدب معها الروح في أجسادهم .

*

حين انتهيتُ من الحكي، كان الخال يجلس قبالتي منكمشًا، يغالب النوم، أعرف أنه كرجل عجوز لم يعد يمتلك التركيز الكافي ليستمع إلى حكي طويل كالذي سبق، لكنني لم أرحمه، أطلقت ضحكتي المجلجلة المنتصرة، استيقظ من غفوته مرتجفًا، كان عليه أن يستعد للتحدي، نظرت في عينيه الكفيفتين مباشرة كأنه يراني، أطلقت بصوت مرتفع في وجهه كلمة :

«شبح ».

وبقيت منتظرًا ماذا سيقول .

*